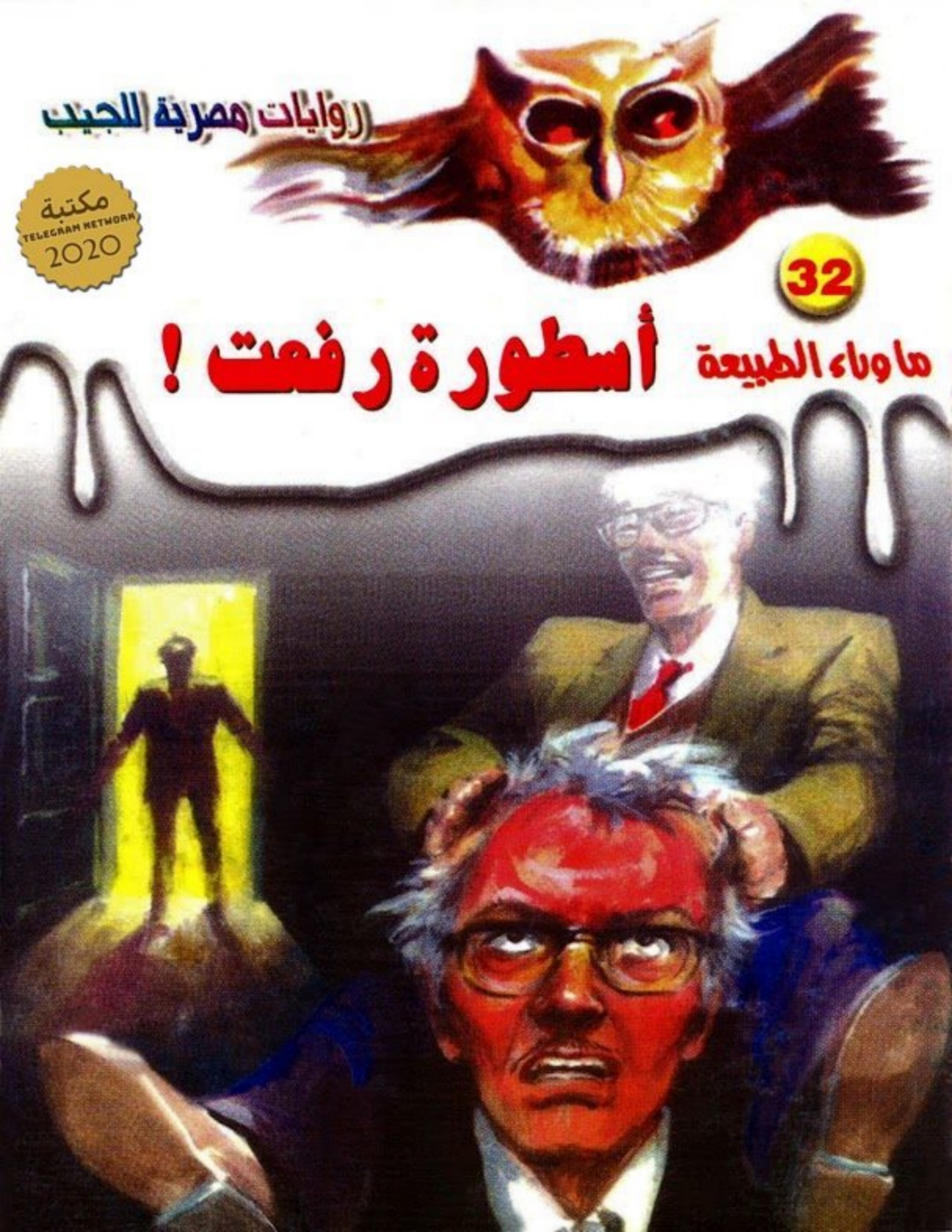


روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
32
ما وراء الطبيعة
أسطورة رفعت !

مكتبة
Telegram Network
2020


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

قال (كراكوس) وهو يشعل عود الثقاب.. ويدنيه من الدمية:

- «إن هناك أشياء مرعبة في هذا العالم يا زميلي.. لكنهم يقولون - وهم على حق - إن ما لا تعرفه لن يؤذيك..»

قلت له وأنا أرقب اللهب يتوهج في القماش:

- «هذا خطأ.. إن ما أعرفه هو ما لن يؤذيني..»

ورحت أرمق ضوء الشموع يتوهج في محاجر الجماجم السبع.. وشعرت بقلق

غريب.. إن هذه الدمية تشبهني إلى حد غير عادي..

فلا توجد دمى كثيرة صلعاء ناحلة ترتدي العوينات، ويبدو عليها السقم...

قال (كراكوس) وأنيابة تلتمع بين شفتيه المتأكلتين:

- «يقولون إنك رأيت كثيرًا جدًا في سني عمرك السبعين..»

- «أكثر من أسماك المحيط..»

ورحت أرمق الدمية التي تتوهج باللهب رويدًا:

ربما ـ برغم كل شيء ـ لم تكن هذه الدمية تمثلني.. ولو كانت تمثلني ربما هي ليست (فتيش) حقيقيًا.. آمل هذا وأتمناه...

قال (كراكوس) - كأنما لا يلاحظ توتري - وهو يطفئ العود:

- «إن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه هو نفسه**!**»

قلت مؤمنًا على كلامه:

- «أنا قابلت نفسي في عام ١٩٧٠.. وكانت لهذا قصة غريبة.. اسمح لي أن أحكيها لك..»

وفي سرى تمنيت أن يكفي الوقت الباقي لي لذلك....

سأحكي القصة لـ (كراكوس).. وستسمعونها معه..

أعتقد أنكم ستحبونها.. أو - على الأقل - لن تثير مالكم...

هذا لو استطعت أن أكملها حقًّا**!**

*   *   *

١ - لقاء مع نفسي!!

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا لن تكون مبالغة مني لو ابتعت زجاجتي مياه غازية، وقطعتين من (الجاتوه) استعدادًا للقاء كهذا!

* * *

أعتقد أن ما سيحدث ليس غريبًا على أكثركم..

إن من قرءوا منكم (بعد منتصف الليل) - وأرجو أن يكونوا كثيرين - يذكرون بلا

شك تلك المكالمة الهاتفية التي تلقيتها على الهواء في الإذاعة..
إنها مكالمة طريفة بعض الشيء.. فصاحبها يتكلم بصوتي.. وله اسمي نفسه.. ويستعرض أخص ذكرياتي التي يعرفها جميعًا..
لاحظوا أنه لا أحد يعرف ما تعرفون أنتم.. فالأحداث جرت عام ١٩٧٠، وأنا لم أمسك القلم لأكتب ذكرياتي إلا عام ١٩٩٢.
لهذا بدا لي الأمر غريبًا.. لا يمكن تفسيره بمزحة أو معاكسة هاتفية.. وكان البتّ في الأمر مستحيلًا وقتها..
لهذا اقترح المذيع (شريف السعدني) - وهو شاب لامع إلى درجة لا تطاق - أن

يتم لقاء بيننا.. وقررت أن يتم اللقاء في شقتي..

إن الذي اتصل بي يزعم أنه هو (رفعت إسماعيل) الحقيقي.. وهو أمر أرحب به فقط لو قال لي من أكون أنا؟ لا أحب أن ينتزع مني أحد هويتي ليتركني بلا هوية.. ثم إنّه لا يوجد حافز قوي لدى أي إنسان كي يتقمص شخصيتي.. فأنا لا أملك ثروة ولا نفوذًا.. فقط أملك جعبة هائلة من المتاعب والعيوب والذكريات الرهيبة..

فمن يريد مشاركتي في كيس الأفاعي هذا؟

هذا هو الموقف الذي بدأت به القصة..

ولكن كيف عساها تنتهي؟

* * *

في شقتي العامرة..
الساعة تقترب من السابعة مساء..
هأنذا أعد الاستعدادات الأخيرة لاستقبال ضيفي..
لو كان هو أنا حقًّا فمن السهل أن أرحب به كما ينبغي.. فأنا أعرف ما أحب.. أدير أسطوانة لـ (عبد الوهاب) في قصيدة قديمة، وأضع علبة تبغ على المنضدة أمامه، وأعد أكواب الشاي ـ هو لا يحبّ الأقداح مثلي - والقهوة ولا بأس بزجاجة (كولا).. إنها رباعية اللون الأسود التي يتحدث عنها أطباء القلب: الشاي - القهوة ـ الكولا - الدخان.. والتي يندر ألا يحبّها

مرضى الشرايين التاجية، وتقودهم إلى القبر أو العناية المركزة أيهما أسرع..

كل شيء جاهز.. أكواب الشاي والأقداح مغسولة ومقلوبة على (رخامة) المطبخ.. والبراد ملىء ومستعد للعمل.. والمياه الغازية في الثلاجة..

ولا بأس بعود من البخور يزيل رائحة شقتي الخانقة...

لماذا احتفي به إلى هذا الحد؟ سؤال سخيف..

لأنه أنا.. هذا مفهوم وواضح تمامًا..

كنت أدرك من البداية أن الأمر سيكون خارقًا للعادة.. سيكون شيئًا من عالم ما وراء الطبيعة.. أدركت هذا وتمنيته...

ودعوت الله ألا يسفر انتظاري عن أمر مبتذل، كأن تكون مزحة سخيفة أو حيلة نصاب.. ولو أنّ هذا مستبعد لأن كل مزحة لها حدود لا تستطيع تجاوزها...

وهذا هو ما جعلني أؤمن بأن ما ينتظرني هو حدث جلل.. حدث يستحق أن أحتفل به بالاحترام والوقار الضروريين..

* * *

وهكذا رحت أطالع بعض المجلات، وأنتظر أن يدق جرس بابي...

ذهني كان فرسًا جموحًا يأبى أن تضع فوقه سرج التركيز.. فكلما حاولت أن أروضه ليفهم ما يقرأ، كان يفر مني..

ويركل.. ويصهل.. ويرمح في سهول الشرود الإنساني حيث تتناثر أشجار التساؤلات:

كيف؟ من؟ لماذا؟

هل يمكن أن ألقى نفسي حقًّا؟

إن هناك تقسيمات متعددة لا أستطيع التفكير في خير منها.. وكعادتي في ترتيب أفكاري أمسكت بالورقة والقلم وبدأت التدوين حتى لا تفلت الأفكار مني:

١ - فرضية الجنون: هي أفضل الفرضيات ها هنا.. إنني قرأت الكثير من روايات (دستويفسكي) الرهيبة التي تغوص حتى العنق في مستنقع النفس البشريّة.. يوجد موقف خالد متكرر فيها هو أن يلقى البطل نفسه! يجلس معها ويتحاور

معها.. ويكون هذا هو بداية الجنون أو نهايته..
إذن الاحتمال الأول هو أنني مجنون...
كان هذا سيحل المشكلة بأسرها، لكنّ عيب هذه الفرضية هو أن (شريف) - وكل من سمع حلقة البرنامج إياها - استمع معي إلى هذا الـ (رفعت) وهو يحاورني ويتحداني ويستعرض ذكرياتي..
ربما تصورت أنا ذلك؟ يسهل سؤال (شريف) وسماع تسجيل الحلقة على كل حال.. هذه الفرضية قابلة للتمحيص إذن...
٢ - الفرضية الثانية هي فرضية النسخة الجينية: أي أنّ هناك نسخة جينية لي أنا بالذات.. تمشي على الأرض وتتكلم وتمزح..

كان هذا حلمًا دائمًا لدى كتاب الخيال العلمي.. لكنه لم يتحقق - أو يوشك على ذلك - إلا في التسعينات.. لهذا بدا لي هذا الفرض مستبعدًا تمامًا وقتها..

برغم أنني قرأت كتابًا كاملًا عن (الإيوجينيا) وعرفت أنّ هذا ممكن في المستقبل..

٣ - فرضية التوءم: فرضية سخيفة.. فأنا لا أعرف الى توءمًا.. وأمي - طيب الله ثراها - لم تقل لي إن هناك واحدًا..

وحتى لو فرضنا تجاوزًا أن لي توءمًا؛ فما كان ليعرف كل شيء عن حياتي ما دام قد ظل بعيدًا عنى كل هذه السنين..

٤ - فرضية التوءم السيامي، توءم كان ملتصقا بجسدي.. ونموت أنا بينما تضاءل

هو.. وانفصل عني.. لكنه مصمم على الانتقام...

إنها فكرة مرعبة قابلت مثلها بعد ذلك بأعوام.. فذكروني كي أحكيها لكم[1] كما أنّ هناك فيلمًا يحمل اسم (قضية السلة) له ذات الحبكة..

لكني أعتقد أنني كنت أعرف لو انفصل جزء من لحمي في أية فترة من حياتي.. ألا ترون هذا معي؟

٥ - فرضية المزحة: وهي مزحة عسيرة حقًّا تم ترتيبها بين معارفي جميعًا.. حيث جلسوا.. وكتبوا تاريخ حياتي كما رآه كل منهم.. ثم انتخبوا خبيرًا في تقليد الأصوات ليتصل بي مداعبًا.. ويسبب حيرتي.. هذا

ً

عسير حقًّا.. فالناس لا يمزحون بهذا الجهد المعقد...

٦ ـ فرضية (شيء ما): وهي أكثر الفرضيات قبولًا لديَّ.. بهذا يمكن تفسير أي لغز من ألغاز الكون..

شيء ما تسبب في إرباكي.. شيء ما يحمل كل صفاتي ويعرف كل أسراري ويؤكد أنه أنا.. شيء ما سيزورني في شقتي بعد قليل...

ما هو هذا الـ (شيء ما)؟

لو عرفت لأعطيته اسمًا ذا دلالة...

سأحاول هنا أن أتجنب نظرية (القرين) لما فيها من أشواك.. وأتجنب نظرية أن قارئ أفكار ـ مثل د.(لوسيفر) يتسلى

بإغاظتي... لأن هذا يمكن نفيه بسهولة بمجرد لقائي به..
وهكذا ـ وأنا أزيح الورقة جانبًا - رأيت أن الحل الأمثل هو سياسة: انتظر لترى.. ورحت أتأمل عقارب الساعة في توتر..

❋ ❋ ❋

إنها العاشرة مساء..
للأسف.. ليس سهلًا أن يلقى المرء نفسه.. سأحاول ألا أموت حسرة على قطعتي (الجاتوه) اللتين اشتريتهما اليوم، وسأضطر إلى العشاء بهما..
هنا دق جرس الهاتف..

هرعت لأرفع السماعة متوقّعًا كدأبي مصيبة ما.. هنا سمعت صوتي الوقور المميز يتكلم:

- «آلو.. د. (رفعت)؟»

قلت في غضب:

- «هأنذا أيها النصاب!»

طقطق بلسانه محذرًا.. وقال بذات الوقار:

- «أنت تخرج عن اتزانك!»

- «بعد كل هذا الانتظار تتهمني بأنني خرجت عن اتزاني؟ إنني غاضب..»

- «لكل منا ظروفه..»

وأردف في تؤدة:

- «إن هناك مشاكل معينة لدي هاهنا في العمل.. لا أدري متى تنتهي.. اقترح أن نجعل الميعاد مفتوحًا..»

ـ «آها! إذن هو التراجع!»

- «يُمكنك أن تقنع نفسك بذلك إلى أن نلتقي..»

وقبل أن أجد ردًا لاذعًا كان قد وضع السماعة..

إنه نفس أسلوبي في المشادات: لتكن لك الكلمة الأخيرة دائمًا قبل أن يجد خصمك الرد المناسب.. إن هذا سيقتله غيظًا...

وقد قتلني غيظًا بالفعل..

❋ ❋ ❋



هرعت لأرفع السماعة متوقعًا كدأبى مصيبة
ما .. هنا سمعت صوتى الوقور المميز يتكلم ..

٢ - أشياء مريبة ها هنا..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بخيبة أمل ساحقة..

* * *

ومرت الليلة في سلام...

لم تكن هناك أحداث سوى ذلك الكابوس المقيت الذي ألقى فيه مئات النسخ مني، وكلهم غاضبون لسبب لا أدريه، لحظتها خطر لي أن اختفائي لن يشكل كارثة ما دام هناك المئات مني، ومرارًا صرخت:

أنا الوحيد**!** أنا الأصل**!** لكنّ ما معنى هذا ما دام الجميع يقولون نفس الشيء عن أنفسهم؟

في الصباح استعددت للذهاب إلى المستشفى، وقد بدت لي ليلة أمس شيئًا باهتًا سحيقًا كنقش رسمه الأشوريون على جدار...

حييت البواب، وأدرت محرك السيارة الواقفة أمام البناية.. كروو كروو**!**

ثمّة مشكلة ما.. إن السيارة من طراز عتيق حقًّا لكنّها لم تنته بعد..

نظرة إلى مؤشر الوقود جعلتني أدرك أن الخزان خاو أو يكاد..

كيف؟ لقد كان به ما يكفي أمس.. أنا متأكد من ذلك.. هناك من يسرق البنزين

من سيارتي أو يسرق السيارة ذاتها ليتنزه بها..
ناديت البواب.. وهو بالمناسبة شديد الكبرياء حاد جدًا يعاملنا - نحن سكان العمارة - باحتقار لا مبرر له، ولسان حاله يقول: لست خادمًا لأبيكم إن الزمن الأغبر هو ما جعلكم تصدرون الأوامر لي..
جاءني متململًا مشمئزًا، ويداه في جيبي جلبابه..
فسألته في أدب معلنًا عن خجلي من وقاحتي:
- «أ.. (عبد الله).. هل رأيت أحدًا يتحرك بهذه السيارة؟»
أطلق زفرة ضيق.. وقال:
- «سبحان الله! لا أحد سواك..»

- «ولم ترَ أحدًا يدنو منها؟»
- «سبحان الله! لا أحد.. منذ ركنتها ها هنا مساء أمس..»
- «لحظة.. تعني ظهر أمس..»
- «بل مساء أمس.. التاسعة مساء.. سبحان الله يا بك! لقد صار النسيان دأبك هذه الأيام.. وبعد هذا غادرت العمارة راجلًا.. ويبدو أنك قضيت ليلتك في الخارج..»
- «أنا بت في الخارج؟»
عاد ينفخ في ازدراء.. وقال وهو يدير جسده في اتجاه الباب:
- «سبحان الله! أنت قلت هذا..»
- «وأين بت إذن؟»

- «هذا ليس عملي... الله أعلم بما يفعله كل من هؤلاء السكان ليلًا!»

وجدت أنني لن أظفر منه سوى بمزيد من التذمر ونفخ الهواء، فصرفته.. وأنا أمرر كلماته مرارًا على جهاز التحليل الموضوع في مخي..

وقدت السيارة إلى أقرب محطة بنزين، وأنا أتساءل عن كنه هذا الذي قال... إنّه ذكي - برغم ضيق صدره - ويمكن الثقة بأن الأمر لم يختلط عليه أو يتشابه.. أمثاله يدسون أنوفهم في كل شيء.. وفضوليون جدًّا.. ولو سطا لص على العمارة فسيكون هذا البواب شاهدًا دقيقًا جدًا لدى الشرطة وسيحدد ملامح اللص بدقة فوتوغرافية مذهلة..

لكني بدأت أنسى الأمر مع الساعات الأولى من اليوم..

❋ ❋ ❋

وفي المستشفى بدأت جولة المرور مع ذلك الطبيب المقيم الذي نسيت اسمه، ولكن له أذنين حمراوين كالدم، وهو عصبي كقاتل جالس على الكرسي الكهربائي في (متشيجان)..

سألته عن الأحوال فقال، وهو ينظر لممرضة تمزح مع صديقتها:

- «كل شيء على ما يرام.. إن حالة هبوط القلب قد تحسنت كثيرًا.. لقد فعلت كما طلبت بالضبط..»

- «عظيم!»

لا ليس عظيمًا على الإطلاق.. لأنني لم أطلب منه أي شيء بخصوص أية حالة أساسًا.. دعك من كونها حالة هبوط قلب.. لهذا سألته والفأر (يلعب في عبي) كما يقولون:

- «ماذا أعطيتها؟»

- «كما طلبت تمامًا!»

قالها في فخر وهو يتقدمني إلى العنبر...

لم يفسر الأحمق شيئًا.. ولم أجرؤ على سؤاله..

ودخلنا لنرى أمامنا ألعن حالة فقر دم رأيتها في حياتي.. امرأة في الثلاثين من عمرها، صفراء كالموز، تجاهد كي تلتقط أنفاسها.. والتشخيص واضح دون جهد

كبير.. هبوط في القلب ناتج عن فقر دم رهيب...
دنوت من المرأة وسألتها في شك:
- «هل أنت متأكدة من أنك تحسنت؟!»
لو كانت أسوأ من هذا أمس، فمن المؤكد أنها كانت ميتة.. فلا يوجد أسوأ مما أراه أمامي.. لكنّها قالت وهي تلهث:
- «حمدًا لله! أشكرك على رعايتك.. لـ.. لي...»
قال الفتى في حماس وهو يربّت على ذراعها:
- «لو لم يمرّ د. (رفعت) ها هنا مصادفة في العاشرة مساء؛ لكان من العسير أن ننقذك..»

ً

حقًّا.. يا لي من عبقري شهم! المشكلة الوحيدة هي أنني لم أغادر داري طيلة أمس.. أتراني جننت؟ أنا واثق من أنني كنت جالسًا في شقتي انتظر ذلك الـ (رفعت إسماعيل) الذي لم يأت..

فهل أكون فعلتها دون علمي؟

قالت المرأة كأنما تزيد حيرتي:

- «حفظه الله.. لقد ظل جواري ساعتين كاملتين..»

قال الفتى بدوره:

- «كان لديه موعد في التاسعة لكنه - مشكورًا - قرر إلغاء الموعد هاتفيًا ليظل بجوارك!»

وانهمرت عبارات المديح لي.. وأنا أشعر بأن رأسي يتحول إلى مستشفى مجانين

كلهم يصرخون ويصخبون في آن واحد..
هاتفيًا؟ (هو) اتصل بي أمس وقال إنّه لن يستطيع الحضور بسبب ظروف العمل.. أي عمل؟ كان ها هنا ينقذ حياة هذه المريضة.. وهو جهد استحق عليه الثناء.. واستحق غيظي..
من هو هذا المدعي؟ ماذا يريد بالضبط؟ وما الذي يحاول قوله؟ وهل من الممكن الخلط بيني وبينه إلى هذا الحد؟
مستحيل..
يوجد احتمال واحد هو أنني جننت.. وأنني أفعل أشياء لا أدري ما هي.. هذا يحدث كثيرًا جدًا ولن يكون غريبًا أن يحدث لي.. لست ممن لا يتصورون أن

يجنوا.. كل إنسان قابل للجنون.. ولا أحد معصوم..

وكذا يمكن ـ دون جهد كبير - أن أتصور نفسي ها هنا في المستشفي، أنقذ هذه المرأة البائسة من توقف قلبها، بينما عقلي الباطن هناك في داري يتخيل أنه ينتظر شبيهًا له..

تبًّا.. إن حالتي سيئة حقًّا!

* * *

وقد ازداد الأمر سوءًا حين دخلت قاعة الدرس...

كان هناك عدد محدود ـ حوالي ثلاثين ـ من الطلبة، يجلسون في تعاسة بانتظار تعذيبي لهم بساعتين من الملل.. وفي

مؤخرة القاعة كان هناك طالبان يثرثران وقد غطى كل منهما فاه بكفه حتى لا ألاحظه.. وهو مشهد وجدت ألا داعي لأن أعلق عليه.. كما كانت هناك طالبتان تتبادلان كتابة أشياء في دفتر المحاضرات، ثم تناولها كل منهما لصاحبتها.. إنها نوع من المحادثة المكتوبة لا يمكن ألا ألاحظها..

كلها أساليب عتيقة جدًا طالما لجأنا إليها في صبانا.. وأكره أن أعلن احتجاجي عليها لمجرد أنني من يقف وراء المدفع هذه المرّة..

وعلى لوح الكتابة العتيق الذي تشقق خشبة، كتبت بقطعة الطبشور وبخط

عريض (الأورام اللمفاوية).. وهنا سمعت همهمة....
نظرت لهم في تساؤل.. فبادلوني النظر في حيرة..
- «هل ثمّة مشكلة ما؟»
لم يقل أحدهم شيئًا.. فبدأت أتكلم بعدما سكنت الهمهمة:
- «اليوم نتحدث عن نوع من الأورام التي تصيب الخلايا اللمفاوية.. ونحن مدينون بأكثر ما نعرفه عن هذا الموضوع للعالم (هودجكين) الذي......»
هنا تعالت الهمهمة من جديد.. لا أفهم.. هل فيما أقول شيء بذيء لاسمح الله؟! أم أن......؟

هنا نهض أحد الطلاب مستجمعًا شجاعته الأدبية ليقول..

- «سيدي.. لقد شرحت لنا الموضوع ذاته أمس!»

ـ «أنا؟ أمس؟»

- «نعم.. حتى موضوع أننا مدينون لـ (هودجكين) و.... كل شيء»

ورأيتهم يتبادلون النظرات الباسمة..

فيما بعد قال (علاء) - أحدهم - إن الأمر بدا لهم كأنه شريط سينمائي يُعاد تشغيله من جديد.. ذات الوقفات والسكنات.. والخط ذاته.. وكان رأيهم هو أنني أحفظ الموضوع كما يحفظه طالب في حصة المحفوظات.. وبالطبع لم يتخيلوا أن الموضوع لم يكن حاضرًا في ذهني..

وأنني كنت أرتبه وأنا أتكلم.. أي أنني لم أكن استقررت بعد على ما سأقول..

لم آت يرد فعل معين، بل مسحت لوح الكتابة بقطعة من القطن.. وكتبت عنوانًا آخر بخط عريض.. وبدأت أتكلم...

هذه المرّة لم يصدر أحدهم همهمة..

❋ ❋ ❋

في داري - بعد كل هذه الأحداث - قررت أن أغفو قليلًا.. فلربما إذا صحوت من النوم وجدت أن كل هذه هلاوس من عقل مرهق.

وتهيأت للنوم حين دق جرس الهاتف...

هرعت حافي القدمين لأرد.. يجب منع المصيبة القادمة التي يدق الهاتف منذرًا بها.. فلا بد من واحدة كما تعلمون..

سمعت صوتًا أنثويًا ذكريًا يقول:

- «هاللوا! د. (رفعت)؟»

- «أعتقد أنه أنا وإلا فبيتي مسكون..»

- «أنا (كاميليا)!»

وهنا استعدت الاسم الذي نسيته لفترة طويلة.. ربما منذ الكتيب الحادي والعشرين..

إن القارئ يذكر - دون شك - د. (كاميليا) أستاذ الفلسفة، التي حاول د. (محمد شاهين) أن يجعلني أتزوجها، ونمت بيننا صداقة لا بأس بها.. إلى أن اتضح لي أنها

ليست (كاميليا) لكنه مخلوق طيفي يلعب دورها ببراعة..

لقد سادت المودة بيني وبين (كاميليا) بعد هذا اللقاء.. وانتهى سوء التفاهم بيننا.. وكانت بيننا مكالمات هاتفية طويلة تحدثنا فيها عن كل شيء يمكن أن يتحدث فيه رجلان...

لماذا تبتسم بخبث؟ بالطبع لم نتحدث فيما تفكر فيه.. فهي أنضج وأنا أحكم - أو أغبي - من أن أقع في الحب.. ولو فعلنا لبدا الأمر سخيفًا....

إن (كاميليا) هي صديق راجح العقل.. وتملك كل مزايا الرجولة النفسية ولن أقول الشكلية حتى لا يتهموني بالوقاحة...

قلت لها وأنا اتثاءب:

- «يسرني أن أسمع صوتك يا كاااااآه.. ميليا..»
ثم أضفت في حذر:
- «منذ متى كففت عن النوم عصرًا؟»
قالت في رزانة جعلتني أوقن أن شيئًا ما في الطريق:
- «لم أستطع النوم.. إن الأفكار تصطرع في ذهني.. والسبب أنت!»
- «أنا؟»
لو كانت تتصل بي عصرًا فتحرمني من نوم القيلولة، لتصارحني بأنها تميل لي، فمن المؤكد أنها فقدت قطاعًا لا بأس به من عقلها.. ولكن دعنا نر....
قالت بنفس الصوت الرزين:
- «طبعًا.. لقد بلبل عرضك أفكاري!»

- «أي عرض؟»

- «لا تتغاب يا (رفعت).. طبعًا عرضك الخاص بالزواج مني!»

* * *

٣ - وأشياء مريبة هناك..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. ولهذا تجدني ميالًا إلى نظرية الجنون لأسباب يطول شرحها...

* * *

هرب الدم من يافوخي.. ويمكن القول - عمليًا - إنني بدأت أمر بأعراض الصدمة كما تصفها الكتب الطبية: الدوار.. ضربات القلب السريعة.. العرق البارد.. ثم ذلك الشعور المقيت بأن الحياة تنسحب مني...

لكني وجدت صوتًا واهنًا استطعت أن أجبره على سؤالها:

- «أنا طلبت... الزواج؟»

تنهدت كأنما تجد الأمر سيئًا.. وقالت:

- «أمس.. في الواحدة صباحًا.. هل نسيت؟»

هنا وجدت من الحكمة ألا أشعرها بشيء غير عادي.. فسألتها بعسر:

- «و... وما رايك؟»

ـ «ما زلت حائرة..»

وأردفت بعد برهة:

ـ «كنت بالنسبة لي دومًا مجرد صديق ذكي.. ومن العسير أن أفكر فيك من وجهة نظر أخرى.. أنت تفهم قصدي.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. بلى!»
ـ «لكني أحاول!»
هنا ارتجف قلبي هلعًا..
أتراها ترفض وتحاول ألا تجرح ـ كما تتوهم ـ مشاعري؟ أم هي فعلًا تحاول؟ أم هي قبلت وتنتظر مني مزيدًا من التوسل؟
قلت لها وأنا أرى بقعة سوداء تتضخم أمام عيني:
- «حاولي يا (كاميليا).. حاولي!»
ـ «هذا عسير كما تعلم!»
- «أعلم.. ولكن حاولي..»
فكرت قليلًا.. ثم قالت كأنما تكلّم نفسها:
- «لم أكن قط كالفتيات الأخريات.. كنت دومًا جادة صارمة.. ولم أتزوج لأني لا أريد أن أفقد عقلي وسط أواني المطبخ

ورائحة السمن.. لكني - لو قررت أن أتخذ فارس أحلام لي - لكان بالتأكيد يختلف عنك..»

هذا هو ما خطر لي كثيرًا..

إن فارس الأحلام الأصلع النحيل الذي يسعل طيلة الوقت، ليبدو غريبًا حقًّا حتى بالنسبة لسكان (المشتري) إن كان له سكان..

أنا كذلك تختلف فتاة أحلامي كثيرًا عن (كاميليا).. لكني لن أصارحها بذلك.. سأحاول تفادي هذا الموقف المحرج بكياسة وحكمة..

قلت لها بصوت العاشق الجريح:

- «أرجوك أن تحاولي يا (كاميليا).. سأعطيك فرصة..»

وتثاءبت واعدًا نفسي بنومة مريحة تزيل إرهاقي الذهني.. فقط فلتنتنه هذه المكالمة بأسرع ما يمكن.. وأردفت وبرودة البلاط تقتل قدمي العاريتين:

- «لا تقولي ردك الآن.. وداعًا..»

- «وداعًا..»

قالتها في عدم رضا.. كانت تريد توسلًا حارًا ورجاءً.. وربما تهديدًا لها بأن أقتلها وانتحر إذا رفضت.. هذا هو ما يرضى كبرياء أنوثتها.. أمّا أن أتكلم بهذا الأسلوب العقلاني البارد فأمر أقرب للإهانة....

وضعت السماعة.. وهرعت لأندس تحت أغطية فراشي...

ألن أحاول فهم ما سمعت؟ فيما بعد.. فيما بعد.. حينما أصحو من النوم مرتب الذهن،

سأفكر مليًا - وأنا أرشف قدحًا من القهوة - في كل هذا..

* * *

في المساء دق جرس الباب حاملًا لي مصيبة جديدة..
فتحته لأجد (عزت) - بوجهه الكئيب المكفهر الترابي - يقف على الباب، وقد رسم على سحنته ابتسامة رقيقة (أعوذ بالله)..
كان يحمل في يده شيئًا ما ملفوفًا في قطعة من الورق، وتم ربطه بحبل..
وقال لي في مودة وهو يتراجع للوراء خطوة:

- «مرحبًا (رفعت).. عسى ألا أكون قد أزعجتك..»
- «أنا لا أجد أي إزعاج في أن يقرع أحدهم جرس بابي عند منتصف الليل.. هذا من حقه كما تعرف..»
- «وعلى العموم لن أطيل عليك..»

ووجدته يضع لفافته المرعبة في يدي.. ويقول وهو يبتعد:

- «هذا هو ما طلبته مني.. إنّه أقل ما يجب تجاهك..»

ثم تقلص وجهه في تواضع أبله.. وأردف:

- «الحق أنني لم أتوقع أنك تفهم في الفنون إلى هذا الحد...»

هنا بدا الأمر واضحًا لي..

لا داعي لمزيد من الأسئلة (أنا) زرته أمس مساء وقضيت معه ساعة أو ساعتين.. ولا بد أنني أبديت انبهارًا شديدًا بأحد تماثيله المرعبة، وطلبت منه أن يهديه لي.. كل هذا واضح ولا داعي للاستفسار عنه..

عدت لشقتي ووضعت اللفافة على مائدة الطعام، وقطعت الحبل بسكين الفاكهة.. وكان التمثال ينتظرني.. تمثال يمثل سحلية فشلت في التظاهر بأنها بطيخة.. أو جزرة مصابة بسرطان البنكرياس.. يبدو أن الأخ (عزت) بدأ يتجه إلى النحت الحديث.. وقد جعلني هذا أدرك للمرة الأولى مدى جمال وعبقرية تماثيله القديمة..

إن هناك من يسخر مني.. من المستحيل أن يروق هذا التمثال لإنسان عاقل..

❋ ❋ ❋

وهكذا ـ لكم أن تراهنوا - جلست أتأمل التمثال وأفكّر في معنى كل هذا..

يمكنني رسم خط سير لا بأس به لهذا الـ (رفعت إسماعيل) الموجود في كل مكان.. إنّه نشيط جدًا.. نشيط إلى حد مرعب...

لقد قاد سيارتي.. ثم قضى بعض الوقت (عزت)، واختار هذا التمثال.. ثم ذهب إلى المستشفى وأنقذ حياة مريضة، وحاضر الطلبة عن سرطان اللمف.. وأيًا ما كانت شخصيّة هذا النصاب فهو يفهم جيدًا في أمراض الدم..

ليس هذا فحسب..

بل إنّه اتصل بالدكتورة (كاميليا) وطلب يدها نيابة عني!



وكان التمثال ينتظرنى .. تمثال يمثل سحلية فشلت فى التظاهر
بأنها بطيخة ..

لقد قضى الوغد يومًا حافلًا مليئًا بالإنجازات، بينما أنا غارق حتى أذني في حسابات معقدة، وحيرة غبية..

والغريب انه يمارس كل هذا بعيدًا عن بيتي.. يجري الاتصالات الهاتفية، ويحاضر ويعالج ويعجب بالفن الحديث.. كل هذا في وقت لا أتوقعه فيه..

أمس كان المفترض أن أحاضر الطلبة.. لكني اعتذرت.. وهكذا خلا المكان له كي يحاضرهم هو.. ويعتذر عن الاعتذار...

ولم يكن مفترضًا أن أمر على المستشفى ليلًا.. لكنه فعلها هو.. وقام بما قام به.. وعرف أنني لن أزور (عزت) لأني سانتظر في شقتي.. وهكذا زار هو

(عزت) وقضى معه ساعة ممتعة.. ممتعة لـ (عزت) طبعًا..
من هو؟ من هو؟

* * *

حتى هذه اللحظة كان دور الرجل لا يزيد على أداء بعض المجاملات عني.. وهو أمر يسرني أنا الذي لا أطيق المجاملة..
لكنني بدأت أشعر بخطورة الأمر حين توجهت إلى البنك صباحًا، لأنهي ورطة ماديّة مزمنة يعرفها كل من يتقاضى راتبه أول الشهر مثلي..
هنا بدت الدهشة على وجه الصراف، وكان هذا كافيًا جدًا لأعرف أنني قد

مررت بالبنك أمس وقمت بسحب ألف جنيه.. والتوقيع هو توقيعي ذاته بالطبع.. كلا.. لا داعي لإثارة جلبة.. أريد مبلغًا آخر من فضلك..

وغادرت البنك مخدر الأعصاب..

إن الأمر أخطر مما ظننت.. فما دام يتعلق بالنقود ـ الشيء الوحيد القادر على أن يؤلمني - فلم يعد تجاهله ممكنًا.. إن ألف جنيه لمبلغ فادح في عام ١٩٧٠.

ماذا ينوي هذا النصاب عمله بمالي؟ وهل يستمر في خرابي على ذات الوتيرة إلى الأبد؟ أين هو؟ ولماذا هو مختف حتى هذه اللحظة؟

* * *

في طريق العودة عرجت على الجزار أبتاع لحمًا.. لست أكولًا لكنّ قطعة لحم من حين لآخر قد تنعش روحي.. ألست من رأيي؟

كان الرجل يقضي ساعات فراغه في عد المال.. وتكديسه في الدرج، والتلويح بتلك السكين هائلة الحجم، والحديث عن الرضا بالقليل.. فهذا هو المقسوم لنا..

قال لي حين رآني أتامل اللحم المعلق في رهبة:

- «حمدًا لله على السلامة يا دكتور! أرجو أن تكون (قطعية) الأمس قد راقت لك!»

نظرت له في غباء..

ثم فهمت على الفور.. فلم أحتج إلى مزيد من الأسئلة..
حييته شاكرًا على روعة ذوقه، وهممت بالانصراف، لكنه استوقفني في أدب وهو يلوح بالسكين:
- «لم أتقاض ثمنها بعد.. وعدتني بالدفع غدًا!»
ثم فرك يديه في ترقب متلذذ:
- «وها نحن أولاء في الغد!»
لا جدوى من محاولة التظاهر بالحيرة أو عدم الفهم..
نقدته ماله، وأنا أتمنى لو تحولت نظراتي إلى (مترليوز) يثقب جسده.. وجسد كل من أراه في هذه اللحظة.

وانطلقت بالسيارة وقد فقدت شهيتي للطعام نهائيًا..

* * *

لكن اللحم كان في ثلاجتي!

قطعة كبيرة حمراء تستقر هناك، وقد اقتطع منها جزء صغير.. وأدركت - حين نظرت إلى حوض المطبخ - أنّ هناك من طهى بعض الطعام في آنيتي..

لقد تناول أحدهم الطعام في شقتي ظهر اليوم، ربما منذ نصف ساعة لا أكثر.. إن الموقد ما زال دافئًا.. كما أنه ليس من هواة غسل الأطباق كما هو واضح..

رحت أبحث في كل أرجاء الشقة عن متسلل لكني لم أجد..

لقد فرغ من تناول طعامه وغادر المكان.. قبل وصولي بأقل من ساعة...

على أن بحثي الدءوب استطاع أن يجذ رزمة من الأوراق المالية ـ أقل من ألف جنيه ـ على (الكومود) جوار فراشي..

هذا هو المبلغ الذي سحبه من البنك.. وذاك هو اللحم الذي اشتراه من الجزار أمس.. إنّه ليس لصًا.. ولا يتلاعب بي..

كل ما هنالك مشكلة صغيرة جدًا.. إنّه يعتقد أنه أنا!

❋ ❋ ❋

٤ - جنون..

حقًا لا يلقى المرء نفسه كل يوم.. لكنّ ليت ذلك ممكن لأخبره برأيي الحقيقي في هذا السخف..

* * *

قال د. (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونًا ويسترخي في مقعده:

- «منذ أن دعوتني إلى (كفر بدر) لأفحص أخاك (رضا) - موضوع النداهة إياه - لم نلتق ثانية.. ظننتك تعادي الطب النفسي..»

قلت وأنا أرمق سقف الغرفة:

- «الحق أنني لا أثق بالطب النفسي البتة.. أعتبره نوعًا من الفلسفة الراقية.. إنّه ضرب من الطب لا يُسمع بالمسماع، ولا يُرى تحت المجهر، ولا يُقاس بالترمومتر.. والقياس فيه مستحيل..»

- «أشكرك لصراحتك.. لكنّ الطب النفسي له مقاييسه..»

- «هل يُمكنك أن تذكر لي عدد الشرايين التي تغذي (الأنا)؟ ما هو الفارق بين أشعة المخ في حالة الاكتئاب التفاعلي والاكتئاب الداخلي؟ ما هو تحليل الدم الذي يثبت إصابة المريض بـ (البارانويا)؟»

ابتسم.. وراح ينفخ في غليونه بضع نفخات ملأت الغرفة بالضباب.. ثم قال:

- «ما دمت تؤمن بتفاهتنا إلى هذا الحد.. فلماذا تلجأ إلينا؟»
- «لأنكم - على الأقل - تعرفون الجنون حين ترونه..»
راح يمارس أعمالًا معقدة في الغليون.. وهذه مشكلة تدخين الغليون الدائمة.. إنّه يتطلب جهدًا أكثر مما يتطلبه محرك سيارة قديم.. وكل من يمسكون به يقضون الوقت في أعمال عديدة ليس التدخين من بينها..
ثم قال بعد ما انتهت معاناته:
- «أنا لا أراك مجنونًا يا د. رفعت).. والوساوس لا تعني الجنون بالضرورة.. وإلا لما عاد في الكون عاقل..»
- «أهي وساوس أم ضلالات؟»

- «إنها الاثنان معًا.. لكنك تعرف أنّ هذا وهم.. وتجاهد كي تتخلص منه.. هكذا يمكنني أن أساعدك..»

سألته وأنا انظر إلى السقف من جديد:

- «هل يمكن أن تكون لي شخصيّة أخرى؟»

- «لا أرى ما يمنع..»

- «دون أن أعلم أنا بذلك؟»

- «هكذا القصة دائمًا..»

ثم أخرج أداة لتسليك الغليون، وعشرة أنواع من الإبر والمطارق والأسلاك وراح يواصل كفاحه مع الغليون.. قبل أن يضيف:

- «أنت هادئ متحفظ ميال للوحدة.. وعقلك الباطن لا يحبّ هذا.. لهذا تحرر

جزء من عقلك اسمه (رفعت إسماعيل).. هذا الجزء نشط متوثب إيجابي يفعل كل ما لا تجرؤ على عمله..»

- «نعم.. يطلب يد امرأة.. ويشتري عشرة كيلوجرامات من اللحم مرة واحدة.. ويعجب بتمثال قبيح لدى جاري..»

ثم عدت أسأله، وقد بدأ التفسير لا يروق لي:

- «لحظة.. وهذا الجزء يتصل بي هاتفيًا؟»

- «هنا قد تكون واهمًا..»

- «لقد سمع كثيرون صوته عبر موجات الأثير..»

- «هنا قد يكون هناك من يداعبك دعابة قاسية..»

ثم نفخ في الغليون نفختين.. وسحب سحبتين من الدخان.. ثم عاد يسكب التبغ في مطفأة أمامه، ويحاول ملأه من جديد بالطباق.. وقال بلهجة مسرحيّة:

- «(رفعت) يا صديقي العجوز.. إن من يوقع توقيعك ويملك مفاتيح دارك ويبدو مثلك، حتى أمام أدنى معارفك.. لا يمكن أن يكون شخصًا آخر.. إنّه أنت يا عزيزي.. أنت!»

- «أنت!»

وراح يسلك الغليون بأداة تشبه دودة الأرض.. وقال دون أن ينظر لي:

- «هاك! حاول أن تغير المكان قليلًا.. اتبع النصيحة القديمة.. اترك القاهرة العجوز بمشاكلها التي لا تنتهي واذهب

إلى.. إلى الإسكندرية مثلًا.. هناك مؤتمر لأمراض الأعصاب بعد أسبوع.. ولسوف يُعقد هناك.. ويمكنك أن تدون اسمك فيه..»

- «لكني طبيب امراض دم.. ولا...»

- «لنقل إنك متحمس للعلم مهما كانت فروعه..»

نظرت له هنيهة.. وللمرة الأولى لم أجد الفكرة سخيفة..

عدت أسأله:

- «وأترك شقتي ها هنا لذلك النصاب؟»

- «لا يوجد نصابون.. لا يوجد سوى عقلك الباطن.. وأولى خطوات العلاج هي أن تعرف ذلك..»

شكرته ونهضت لأنصرف.. لكنه كان منهمكًا مع الغليون فلم ير يدي الممدودة كي يصافحها.. قلت له في أدب:

- «أ.. هل تريد رأيي؟»

- «هه؟»

- «اقترح أن تتخلص من هذا الغليون قبل أن تصاب بجنون ذهولي.. أو اكتئاب ضموري... أو أي اسم من هذه الأسماء التي لا تنتهي!»

❋ ❋ ❋

الليلة أسافر إلى الإسكندرية.
سأقضي أسبوعًا في (بنسيون) كذلك الذي كنت أمضى فيه ليلتي عندما كانت (هويدا) خطيبتي.. بعد هذا يمكنني أن أقرر حضور المؤتمر من عدمه.. إن المؤتمر ذريعة مناسبة أقنع بها نفسي بأنني لم أهرب من القاهرة..
لم تكن هناك مشاكل بصدد طلب إجازة، لأنني وجدت أنّ هناك من طلبها بالفعل! بالطبع هو (أنا).. وهكذا وفر على عناء الإجراءات الإدارية..
ثم شرعت أحزم حقيبتي..
لقد ترك الوغد أبوابًا كثيرة مفتوحة في دنياي.. ومنها باب (كاميليا) وسواه.. ليس



عدت أسأله :

ـ « وأترك شقتى ها هنا لذلك النصاب ؟»

بوسعي أن أغلق تلكم الأبواب الآن.. لهذا سأتركها كما هي وأفر بضعة أيام.. وعندما أعود قد أكون مت أو مات هو أو مات الجميع...

* * *

ولكني - حين بدأت في إعداد حقائبي - وجدت أن عددًا لا بأس به من قطع الثياب ليس موجودًا..

البذلة كحلية اللون على سبيل المثال ـ وأنتم تعرفون حبي لها ـ ليست هنا والقميص السماوي.. وربطة العنق الرمادية.. وبعض - إحم ـ بعض الثياب الخاصّة.. كلها لم يعد لها وجود هنا..

حتى ماكينة حلاقتي، وفرشاة الشعر الناعمة التي أرتب بها الشعر المبعثر على جانبي جمجمتي.. ومعجون الأسنان...

ليس الأمر مزاحًا إذن...

إن هذا (الآخر) يزمع القيام بإجازة طويلة أيضًا.. ولن يدهشني في شيء أن تكون الإسكندرية هي وجهته.. ربما سبقني إلى هناك..

متى يجيء ومتى يرحل؟ وكيف لا يتصادف أن أضبطه متلبسا أبدًا؟ الإجابة واضحة جدًا: لأنك جننت يا عزيزي (رفعت).. جننت.. وهذا الآخر ليس سوى أنت في صورة لا تدركها..

كنت أخاف دومًا رواية د.(جيكل) ومستر (هايد).. لأن المسخ الذي يثير الذعر في

ً

نفسي حقًّا هو أنا.. أنا الذي لا أعرفه.. والذي يفعل أشياء ويقول كلمات لا يمكن أن أفعلها أو أقولها.. ثم لا يصدّق أحد أنه ليس أنا.. بل هو..

آهههه! إنني قد جننت.. أو دنوت من ذلك جدًا..

* * *

كان رفيقًا بي فترك سيارتي.. لم يأخذها لحسن الحظ...

أمامي رحلة قيادة مرهقة.. لكني أحبها.. إنها تذكرني بأيام خطبة (هويدا).. أيام البراءة الأولى حين كنت أحسب من حقي

أن أحب.. وأن أتلهف على أي شيء في هذا العالم...

* * *

وفي الثانية عشرة مساء دخلت إلى المدينة الحسناء.. كانت موشكة على النوم لكنّها فتحت عينيها المنهكتين وعرفتني.. فابتسمت وراح عنها النعاس:

- «(رفعت) أيها العجوز! يا له من دهر!»

- «أعلم ذلك.. وأعتذر عنه.. لكنك تحملين لي ذكريات سعيدة إلى حد أنها شديدة القسوة..»

- «لا عليك.. حاول أن تنام قليلًا وبعد هذا نتحدث..»
- «شكرًا.. هل ما زال بنسيون (السعادة) موجودًا؟»
- «بالتأكيد.. يُمكنك المبيت فيه ما لم تكن الذكريات هناك أكثر من اللازم..»
وهنا تذكرت شيئًا.. فسألت شوارع المدينة:
- «بالمناسبة.. هل رأيت من يشبهني اليوم؟»
- «يشبهك؟ من هذا التعس؟ إن واحدًا فقط يكفي العالم...»
- «هذا هو رأيي..»
وكما أخبرتني (الإسكندرية)؛ وجدت البنسيون كما هو، بذلك المصباح الخافت

جوار مدخله.. واللافتة التي يمكن قراءتها بكثير من العسر.. ووجدت الخادم ذاته يفتح لي الباب ويتذكرني على الفور....

بعد كل هذه الأعوام؟

قال وهو يضحك.. ويفرك النعاس عن عينيه:

- «أعوام؟ أنا أتحدث عن مرورك هنا ساعة أذان العشاء.. اليوم.. هل نسيت؟ كنت مترددًا بشأن الإقامة هنا.. يبدو أنك لم تجد فندقًا به غرفة خالية.. إن هذا يحدث..»

التزمت الصمت.. وقطبت جبيني..

حتى هنا أجد الشخص ذاته.. وكالعادة سبقني ببضع ساعات.. إن الأمر لم يعد

قابلًا لتفسيره بدعابة أو مؤامرة أو حتى الجنون... فما تفسيره إذن؟

أخرجت بطاقتي الشخصية.. ودفعت حساب ثم أخذت مفتاح الغرفة واتجهت إليها بخطوات من يألف الدار...

وأغلقت باب الحجرة عليّ.. ثم رحت أجول في الحجرة أتأمل أثاثها الرخيص النظيف.. إن نظافة هذا البنسيون هي أهم ما جذبني إليه.. نظافة لها رائحة الغسيل الذي جمعته من على الحبل في يوم مشمس..

لكني لم أكن أنظر إلى شيء بعينه.. كنت أدعو الله في سري..

رباه! لا تدعني أفقد عقلي....

إنني لفي مأزق مخيف..

*   *   *

٥ - موقف محـرج..

كنت أقول إذن إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لأن المرّة الأولى هي الأخيرة غالبًا.. وبعدها يجد نفسه في المصحة العقليّة..

* * *

في الصباح عرجت على مطعم فتناولت وجبة إفطار لا بأس بها، وعند الظهيرة اتجهت بسيارتي إلى مديرية الأمن، لأطلب لقاء (عادل).. لقد صار عقيدًا منذ فترة، وهو ما يفسر الشك الذي عوملت به أولًا..

فالاحترام الذي عوملت به بعد ذلك، حينما طلب أن يوصلوني إليه..

وصعدت في الدرج وسط هذا الجو البوليسي الذي تتوتر له أعصابي.. حتى وصلت إلى مكتبه.. طرقت الباب قبل أن يسألني الجندي الواقف على الباب عن غايتي، فسمعت صوت (عادل) الجهوري يدعوني للدخول....

كان وسيمًا كعهدي به، وإن ازدادت الشعيرات البيضاء في فودية.. وكان يرتدي ثيابًا مدنية.. القميص وربطة العنق دون وسترة كما يفعلون جميعًا..

فما إن رآني حتى نهض واقفًا.. وصرخ وهو يفتح ذراعيه:

- «(رفعت)! إذن حل الخراب بالمدينة!»

تعانقنا.. وأشار بطرف إلى الجندي الذي كان يحاول اللحاق بي محتجًا.. ثم سألني عما أشرب.. فطلبت فنجانًا من القهوة.. أشار للجندي كي يجلبه لي..

لم يكن على علم بقدومي.. لكنه كان ودودًا جدًا.. أنا أعرف أن (عادل) يحبني حقًّا.. حتى برغم ما كان من موضوع (هويدا) شقيقة زوجته.. صداقة الصبا هي أمتن أنواع الصداقة وأخلصها.. ومن العسير أن تتزحزح، لأنّها صداقة روحين لا مجال فيها للماديات ولا النفاق ولا المصالح المشتركة..

سألني وهو يجلس جواري على مقعد أمام المكتب:

- «لماذا عدت؟ هل تبحث عن شبح جديد؟»

- «بل أنا هارب.. هارب من نفسي.. بالمعنى الحرفي للكلمة!»

انفجر يضحك كدأبه في الضحك من أعمق أعماقه.. وقال:

- «كلنا يهرب من نفسه.. هل نسيت فلسفتك السقيمة؟»

- «لا مجاز هنا.. الهرب من النفس هو الهرب من النفس.. قلت لك إن هذا هو المعنى الحرفي..»

عاد يضحك وضربني على ظهري ضربة فجرت شرياني الرئوي.. وقال:

- «إن فهم هذا كله قد يكون مسليًا.. لكنّ لا وقت لدي لذلك..»

ونظر في ساعته.. ثم قال بلهجة لا تناقش:

- «لا ارتباطات لديك طبعًا.. ستتناول طعام الغداء في داري.. صه! لا تقل المزيد! انتهى!»

ورفع سماعة الهاتف وأدار القرص.. قبل أن أتمكن من الاعتراض، وسمعته يقول - لـ (سهام) طبعًا - إنني مدعو على الغداء.. وأننا قادمان بعد نصف ساعة.. ثم وضع السماعة واتسعت ابتسامته أكثر..

صحت في ذعر:

- «لكني لن أقابل (سهام) بعد ما.....»

تقلص وجهة معبرًا عن تفاهة ما أريد قوله:

- «كل هذه الأشياء قسمة ونصيب.. لقد مر دهر على هذا الموضوع.. و(هويدا) سعيدة الآن مع زوجها.. إن آخر شيء تعتذر عنه يا (رفعت) هو عدم الزواج من فتاة ما.. لأن أحدًا لايعتذر عن خدمة عظيمة كهذه!»

لم أفهم عبارته الملتفة أولًا.. ثم فهمتها فاحمرّ وجهي.. يريد القول إن أفضل معروف قدمته لـ (هويدا) هو أنني لم أتزوجها.. لهذا أستحق كل ترحاب وتكريم!

- «شكرًا..»

وأحضر لي بعض مجلات الشرطة إياها، وطلب منى أن أتسلى بها على حين يفرغ مما بين يديه من أوراق.. وأشعل لفافة تبغ وانهمك في العمل..

رحت اتصفح المجلات ـ التي هي أقرب للنشرات الدورية ـ في غير اكتراث.. إلى أن وقعت عيناي على اسمي.. بالتأكيد اسمي.. وكان الموضوع عن التبرع بالدم وكيف أنه عمل جليل.. ويبدو أن كاتب المقال طلب رأيي باعتباره من المختصين بالموضوع.. غريب!

رحت أقرأ السطور بعين زائغة:

وقال د. (رفعت إسماعيل) - ويرى د. (رفعت إسماعيل) - ويقترح د. (رفعت إسماعيل)... إلخ...

ها هي ذي أشياء قلتها.. وآراء أعلنتها.. لكني - والله يعلم ـ لم أفعل قط.. إن تاريخ المجلة يشير إلى هذا الشهر.. الشهر الذي بدأ فيه الكابوس...

أحسست بالرجفة تعاودني.. ورفعت رأسي أتأمل (عادل)..

هل أصارحه؟ لن يفهم.. ولو فهم فلن يجد ما يفعله.. إن الوضع كله غريب غريب.. ولكن أية مصادفة هذه؟

رفع وجهه قوى التقاطيع عن الأوراق ولمح المجلة في يدي.. فقال باسمًا:

- «آه! وجدت مقالتك؟ نسيت أن أهنئك عليها.. إن الرائد (عماد) هو أخ صغير لي.. وأنا الذي رشحتك كي يستعين بك في هذا المقال.. إنّه أديب أكثر من كونه رجل شرطة..»

رفعت إصبعًا مهتزًا.. وأشرت إلى الكلام المكتوب وقلت:

- «أ.. أين أجروا هذا الحديث؟»

- «هل نسيت بهذه السرعة؟ لقد اتصل بك (عماد) هاتفيًا في دارك وكتب ما تقول.. ألم يرسل لك عددًا من هذه المجلة؟»

- «نعم.. إنها مفاجاة سارة حقًّا..»

وكدت أبكي غيظًا وكمدًا...

إن هذا (الآخر) يزداد نشاطًا وشهرة يومًا بعد يوم.. إنّه يتوسع في كل يوم ويلتهم جزءًا جديدًا من عالمي.. حتى أوشك أنا أن أغدو ظلًا له..

من هو (رفعت) الحقيقي؟ بالتأكيد هو.. ما دام الأكثر حيوية وسرعة..

هنا كان (عادل) قد انتهى من أوراقه.. أو قرر إرجاء ما تبقى منها لغد.. ورأيته

يتناول سترته ليرتديها.. ويقول متجهًا إلى الباب:

- «هيا بنا..»

❋ ❋ ❋

كانت (سهام) فاترة..

أرضى هذا غروري إلى حد كبير، فهى - على الأقل - قد خيبت ظن (عادل) ولم تلثم يدي شاكرة على عدم زواجي من أختها..

كان الطعام قد أعد على عجل لأنّها لم تتوقع قدومي.. بعض (المكرونة) والبطاطس المحمرة ودجاجة لم تنضج تمامًا، لأنّها أخرجت من الثلاجة منذ ساعة واحدة..

ولأن (سهام) فاترة؛ لم تصدع رأسي - لحسن الحظ - بالطقوس المعهودة لدى البيت المصري.. على غرار (نحن لا نترك طعامًا في أطباقنا) أو (لن نلح عليك فأنت صاحب الدار) أو (دعنا نر ما إذا كنت بخيلًا)..

كان الأكل صامتًا.. لهذا أحببته..

ومن حين لآخر كان (عادل) يحاول تبديد الجو الفاتر بمزحة سخيفة أو مزحتين، فكنت ابتسم ابتسامة متكلفة، واختلس نظرة إلى (سهام) لأجدها لا تبدي أي انفعال من أي نوع..

وجاء (أشرف) ابنهما - هو الآن في العاشرة من العمر - ليقول شيئًا.. لكنّ أمّه

زجرته بعنف.. وأمرته أن يعتكف في حجرته...

انصرف الطفل حائرًا.. فأنا بمثابة عمّه.. ولا يوجد ما يبرر أن.....

إنها شرسة إلى حد مبالغ فيه.. ثم لماذا لا يشاركنا الطفل الطعام؟ ولماذا تدفن وجهها في طبقها وكأنها أقسمت ألا تلتقي عينانا؟

الخلاصة أن الغداء كان فشلًا كاملًا..

وشعرت بجبل من الجليد يعلو شيئًا فشيئًا، حتى ليوشك على خنقي وراءه..

ورحت أبتلع المكرونة كأننى ألقي بها في صفيحة قمامة، متعجلًا لإنهاء هذه الجلسة المؤلمة....

(سهام) تبالغ.. تبالغ أكثر من اللازم...

لو كانت (هويدا) مخطوبة لـ (أغا خان) ثم فسخت خطبتها لبدا الأمر مفهومًا.. لكني لا أرى في فقداني ما يدعو لهذا الغضب المتعصب..

* * *

انتهينا من الطعام...

هنا دق جرس الهاتف، فنهض (عادل) ليرد، وهو يقول شيئًا عن الأعباء التي توشك على قتله..

ظللت و(سهام) على مائدة الطعام شبه الخاوية، والصمت يجلس معنا كصديق حميم..

أداعب عظمة فخذ الدجاجة بطرف السكين، باحثًا عن كلمة يمكن قولها.. ورابع المستحيلات هو أن تجد موضوعًا صالحًا للكلام حين تبحث عن واحد..
أخيرا سألتها مبتسمًا:
ـ «ألا تنويان أن تهديا (أشرف) أخًا أو أختًا؟»
ساد الصمت هنيهة وهي تقلب المكرونة في طبقها شاردة.. ثم همست:
ـ «ربنا يسهل..»
قالتها متنهدة، كأنما تضع مزيدًا من الجليد فوق الجبل بيننا..
عدت أقول بعد قليل:
ـ «إن عشرة أعوام لفترة أطول من اللازم بين طفل وآخر..»

ـ «هذا ليس من شأنك!»
كان هذا أقوى مما تصورت...
صفعة معنوية هوت فوق خذي فاحمرّ.. ورحت أتأمل عظمة الدجاجة في طبقى باهتمام أشد.. حاولت أن.. أعتذر.. فقلت:
ـ «لم أقل هذا سوى دعابة لكما.. لم أعن ما قلته..»
ـ «أما انا فاعني ما قلته!»
هنا فاض بي.. فلو لم أكن في دارها لهشمت رأسها على الحائط.. ثم تسليت بعد الشرايين التي تغذي مخها.. لكني تماسكت.. وقلت كـ (جنتلمان) يجد كل هذا غريبًا:
- «(سهام).. أنا لا أفهم ما..»
ـ «مدام (سهام) من فضلك!»

- «حسن.. أنا لا أجد سببًا لهذه المعاملة غير المقبولة.. إن أية خطبة هي مجرد اختبار.. قد ننجح فيه وقد نفشل.. وليس من الحكمة أن نكابر فتكون زيجة تعسة.. إن فسخ الخطبة أبسط من الطلاق على ما أظن..»

- «عم تتحدّث بالضبط؟»

قالتها واتسعت عيناها في وحشية... العينان العسليتان اللتان تتوهجان بالنار عند الغضب.. ومالت على المائدة.. وبصوت كالفحيح قالت:

- «إذا كنت استقبلتك في داري ثانية، فذلك إكرامًا لـ (عادل).. ولأنني أعرف أنه يمكن أن يجن ويرتكب جريمة.. ولكن لا

تتصور لحظة أنني أفعل ذلك من أجلك.. ولهذا فقط لن أخبره بما فعلت!»

- «فعلت؟ أنا لم أفعل لـ (هويدا) شيئًا!»

ازدادت عيناها توحشًا.. وصار وجهها أقبح وهي تهمس:

- «أنا لا أتحدث عن (هويدا).. أتحدث عما قلته لي صباح اليوم!».

❋ ❋ ❋

٦ - أخيراً نلتقي!

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا قد تتصرف هذه النفس بكامل حريتها، ودون رقابة.. وهذا قد يكون خطرًا.. خطرًا أكثر مما تظن..

* * *

- «أنا قلت لك ماذا؟» اندفعت الصرخة من حلقي.. ويبدو أنني وقفت.. أو أنني وضعت ركبتي على المائدة.. لا أعرف حقًّا ما فعلته.. لكنه كان مجنونًا..

قالت همسًا وهي تضع سبابتها أمام شفتيها المضمومتين:

- «صه! لا فضائح من فضلك.. يكفيك ما كان صباح اليوم!»

عدت أسألها مستعملًا (أوكتافًا) أقل في صوتي:

- «أنا قلت ماذا؟»

مطت شفتيها، في اشمئزاز.. وغمغمت:

- «ما كان لك - أيها الحقير ـ ان تستغل غياب صديقك عن داره.. وتأتي لزوجته كي تصارحها بحبك.. أبعد كل هذه الصداقة؟ أبعد كل هذه الثقة؟»

كانت تكرهني حقًّا.. تحتقرني حقًّا..

وشعرت أنني أتلاشى تمامًا.. لن تفهم شيئًا ولن تصدق شيئًا.. لقد أحيط بي حقًّا

ولم تعد الكلمات تجدي..
هنا ـ غارقًا في مجرور أفكاري مقيت الرائحة ـ سمعت (عادل) عائدًا..
لقد أنهى مكالمته.. كان يقول أشياء وأشياء....
- «قلت لك إنها مهنة تقصف العمر».. عساه لم يسمع.. عساه لن يعرف.. «كلهم لا يجدون سواي كي..».. والخطيئة المرتسمة على وجهي تعلن للكون كله أنني حقًّا فعلتها.. «.. لقد قتل زوجته لأنّها عايرته بفقره..».. كيف أفسر شيئًا كهذا لا أصدقه أنا نفسي؟ «.. ثم سلم نفسه.. ويقول..».. الصديق الخائن.. لكني لم أخن.. فعلها الوغد.. و.. «الساطور.. دماء...».. لم يعد البقاء ممكنًا هنا..

«الجيران سمعوا صراخها..».. هذا البيت محرم عليّ إلى يوم الدين.. لكنّ هل محرم عليه (هو)؟

ووثبت على قدمي المتخاذلتين.. وبصوت كالتوسل صحت:

- «خذني معك!»

- «لا تكن سخيفًا.. نحن لم نجلس معًا بعد.. ثم إنك لم تحتس الشاي..»

بصوت كالبكاء:

- «خذني معك يا (عادل)!»

قال في لطف:

- «لن أتأخر.. ستنتظرني هنا.. إن (سهام) بمثابة أختك ولن يضير في شيء أن..»

- «خذني معك!»

نظر لها في حيرة.. ثم لي.. ثم لها.. وهز كتفيه باستسلام:

- «ليكن.. طالما تصر على ذلك.. لكننا سنعود..»

واتجهنا إلى الباب، ولم أستطع أن ألتفت إلى الوراء لأشكر (سهام) على حسن ضيافتها.. أعرف أنني لن أضع قدمي في هذا البيت الحبيب أبدًا..

وفي السيارة ظللت صامتًا أرمق الشوارع بعينين من زجاج..

(عادل) يتكلم.. يتكلم.. ثم سمعته يقول بنبرة عالية ليجذب انتباهي:

- «(رفعت)! ما بالك؟ تبدو كمن رأى شبحًا.. بل تبدو شبحًا أنت نفسك!»

ثم أردف وهو يدسّ لفافة تبغ في فمه:

- «ربما لم تكن (سهام) ودودًا كما يجب.. لكني أعرف أنك واسع التفكير.. ونحن لن نفهم النساء أبدًا.. هل تعرف السبب؟»

فلمّا لم أرد.. أجاب على السؤال بنفسه:

- «لأننا لسنا نساء! نياهاهاه! حلوة! أليس كذلك؟»

كان هذا هو ما أحتاج إليه كي أبكي.. انفجرت ماسورة عواطفي وأحزاني كي تغرق الميادين وتعطل المرور في مدينة الواقع.. وسمعت (عادل) يتساءل في لهفة عما حدث.. أتراها (سهام)؟ اللعينة! لا بد أن لسانها الشبيه بذيل الأفعى قد.... (رفعت)! بسم الله الرحمن الرحيم! هل نتوقف؟ هل أحضر لك بعض الماء؟

كنا قد وصلنا إلى (مديرية الأمن)، حيث تركت سيارتي.. ففتحت باب سيارته وخرجت متثاقلًا.. وبصوت لم آلفه همست وأنا أنحنى على نافذته:

- «اسمح لي... أريد أن أنفرد بنفسي قليلًا..»

- «لكنك لا تبدو في حالة تسمح بـ.....»

- «أنا بخير.. فقط أنا مرهق.. مرهق..»

وابتعدت دون أن أترك له فرصة الاستزادة..

❋ ❋ ❋

كان الشاطئ خاليًا تقريبًا من الناس...

في ذلك الوقت لم يكن (العجمي). بالازدحام الذي تعرفه، ولم يكن الوقت وقت اصطياف على كل حال..

لهذا مشيت.. مشيت..

يداي في جيبي بنطالي.. والريح تصفر في أذني كأنما قوقعة عملاقة ملتصقة بها.. ورذاذ البحر يبلل زجاج عويناتي.. ويملأ فمي بمذاق مالح..

رمال.. رمال.. يبعثرها حذائي يمينًا ويسارًا..

وخواطر لا تنتهي..

نظرت إلى البحر.. وقلت له: هأنتذا أيها البحر بأسرارك الغريبة، ترمقنا منذ ملايين السنين.. وتخفي في أعماقك الكنوز والجثث و.....

ثم وجدت أنني لا أتأمل.. بل أمثل أنني أتأمل.. وأردد ذات ما يقوله كل من يقرر أن يكتب عن البحر.. الواقع أنني لا أجد في البحر ما يثير أبدًا..

مجرد صفحة غبية مملة من المياه.. مثلها مثل ترعة قريتي.. الفارق الوحيد هو أنني لا أرى الضفة الأخرى..

ونظرت إلى الأمام لأتجنب سخف الأمواج..

كان هناك رجل يقف في الماء الضحل، وقد ثنى طرفي بنطاله.. وغمر قدميه العاريتين حتى الساقين في الزبد.. وكان منحنيًا على الماء يتفحّص شيئًا ما، بدا لي شيء مألوف في مظهره..

دنوت منه أكثر..

كان نحيلًا كعود خلة.. أصلع ككوكب المشتري.. يرتدي بذلة كحلية اللون وقد تطايرت في الريح ربطة عنق رماديّة.. وعلى أنفه عوينات سميكة..

وكان يضع تحت إبطه حذاءين مألوفي الشكل لي..

أنا أعرف هذا الكهل.. ولكن أين؟

شعر بوجودي - وقد صرت على بعد مترين منه - فرفع رأسه، وتلاقت عينانا.. فابتسم.. لقد عرفني كذلك..

لقد رأيت وجهه مرارًا.. أين؟ أين؟ في مرآتي؟! في صوري الشخصية؟ في عقلي الباطن..

وهنا بدأت أفهم..

لقد جاء الفهم بطيئًا.. لكنّ جاء شاملًا قاسيًا مروعًا..

إنه هو!

إنه أنا!

* * *

ظللنا لفترة لا بأس بها نتبادل النظرات.. إن كلام (أينشتاين) عن الدقيقة التي تمر فوق موقد مشتعل فتبدو كساعة.. والساعة التي تمر مع حسناء فتبدو كدقيقة؛ هذا الكلام لا يعني شيئًا ها هنا.. فأنا لم أتعذب بلقاء هذا الرجل.. لكنّ دهرًا كاملًا مر علينا ونحن صامتان...

أخيرًا وجدت الكلمات:

- «أنت؟»
بنفس صوتي.. قال:
- «وأنت؟»
- «إنني لم أتصورك بهذا القبح! قرد أصلع يرتدي بذلة كحلية اللون.. بذلتى أيها اللص!»
وقبل أن يجد ردًا.. كنت قد أطلقت العنان لغضبي..
اندفعت قبضتى في لكمة عنيفة إلى أنفه.. أكاد أقسم إنني سمعت العظام تتهشم.. إنّه ضعيف مثلي.. لكني حانق.. وهذا ما يجعلني أتفوق عليه..
واندفعت قدمي في ركلة شرسة لساقه.. فأطلق صرخة ألم.. وراح يتواثب كاللقلق على ساق واحدة.. سقطت عويناته على

الرمال.. فلم أتردد في سحقها تحت حذائي..
ثم وثبت لأدفن رأسي الصلبة في بطنه.. وهنا سقط على الأرض، وسقطت فوقه.. أعتصر عنقه بين أصابعي وأضغط..

أنا لا أستطيع إيذاء دجاجة.. ولماذا أؤذيها؟ لكني - بالتأكيد ـ قادر على سحق أفعى حينما أجن.. حينما أنزع عن روحي أصفاد التحضر وقيود الخوف والوقار.. سأقتله الآن.. لن أنتظر حتى أسمع تفسيراته..

كان يحاول أن يتكلم.. لكنّ الكلام مستحيل حينما تضغط يد مجنونة على حنجرتك..

وأخيرًا نجح في انتزاع عويناتي.. وشعرت به يحاول غرس إصبعين في عيني.. لهذا أبعدت وجهي إلى آخر مدى ممكن...

هنا كان (الأدرينالين) قد ملأ دمي.. وشعرت بأن قلبي قد صار أسرع من



سقط على الأرض ، وسقطت فوقه .. أعتصر عنقه بين أصابعي وأضغط ..

اللازم.. أسرع مما تحتمل شرايينه المجهدة..
لحظة وهن مرّت بي.. لكنّها كانت كافية..
وعلى طريقة المصارعين نجح في أن يعتليني بدوره..
لكنه لم يحاول خنقي ولم يوجه لكمات لي.. كان يمسك بمعصمي.. ويردد مرارًا وهو يلهث:
- «صبرًا! هيه! قلبك أيها الغبي! إنّه سيتوقف!»
لكني لم أكن مستعدًا للتعقل.. رفعت ركبتي معًا وضربته في مؤخرة رأسه.. ثم نهضت لأعتليه من جديد.. ورحت أوجه لكمات مجنونة إلى وجهه..

هذه من أجل البنك.. بوم! هذه من أجل (كاميليا).. بوم! هذه من أجل اللحم.. بوم! وهذه.. هذه من أجل (سهام).. بوم بوم! أقوى بكثير.. أمّا هذه.. فـ... بوم! من أجل بذلتي الكحلية..

كان صلبًا أو أنا أضعف مما ينبغي.. هذه اللكمات لو كان صاحبها رجلًا عاديًا لأمكنها قتل فيل.. لكني لست رجلًا عاديًا.. إن قوتي تعادل قوة دجاجة مصابة بضمور العضلات..

والوغد ما زال يحاول الكلام...

كان الغضب أقوى من عضلاتي.. لهذا انحنيت وفعلت الشيء الوحيد الممكن.. عضضته في ساقه عضة جعلته يصرخ.. يصرخ ليثير ذهولهم في (إيطاليا)..

والتحمنا في صراع فوق الرمال..
لا بد أن منظرنا بدا غريبًا.. نوعًا من مصارعة الديوك.. لم تطل كثيرًا..
وفي النهاية جاءت الأمواج لتغمر جسدينا.. جسدينا الراقدين فوق الرمال وقد قتلهما الإنهاك والانفعال..
وحين انحسر الموج كنت قد هدأت نوعًا..
ورحت أكافح لأعب الهواء في صدري..
وأحاول النهوض جالسًا.. أمّا هو فظل راقدًا على ظهره يلهث.. وصدره يعلو ويهبط...
في النهاية استطاع أن يقول:
ـ «أنت.. شرس.. حقًّا!»
قلت وأنا أبصق الماء المالح من فمي:

- «وأنت صلب حقّا.. كان المفترض أن تكون في جهنم الآن..»
قال وهو ينظر إلى السماء:
- «إننا متعادلان في القوة.. فلا أمل في أن يفوز أحدنا.. كما في الشطرنج حين ينتهي الدور (باطة)..»
ونهض.. وأردف وهو يحاول الاتزان:
- «ثم إنني أطول منك نفسًا لأنني.. أقلعت عن التدخين منذ خمسة أعوام.. هلمّ ساعدني على النهوض..»
مددت له يدي فالتقطها... ونهض..
على حين مشيت إلى الماء لأغسل عويناتي ثم أضعها على أنفي.. ورحت أتأمله عبر قطرات الماء التي تبلل الزجاج..

إنه أنا.. دون زيادة ولا نقصان..
حسن.. مرحبًا بك يا (دستويفسكي) يا أستاذ الجنون.. هو ذا المشهد الذي طالما وصفته في رواياتك.. لقاء البطل مع نفسه.. الرواية تدنو من نهايتها..
سألت الرجل وأنا أنفض الرمل المبتل عن ثيابي:
- «والآن كفانا مزاحًا..»
- «هذا حق.. إن المزيد من المزاح سيقتلنا..»
- «قل لي من أنت..»
نظر لي وضيق عينيه.. ثم قال في ثبات:
- «أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)..»
- «يا سلام.. ومن أنا إذن؟»
- «هذه مشكلتك.. لا بد أنك شخص ما..»

قلت في غضب:

- «اسمع يا صاح.. أنت تعرف أنني أعرف أنك تعرف أنني (رفعت إسماعيل) فكف عن هذه التمثيلية..»

قال وهو يمط شفتيه في سخرية:

- «تمثيلية؟ أحقًا تأمل في هذا؟ أنت رجل يا.. يا (رفعت).. لهذا أناشدك بالله أن تقول لي: هل حقًّا يمكن لتشابهنا أن يكون مصادفة؟»

قلت وأنا أدير الاحتمالات الرياضية في ذهني:

- «هذا عسير لكنه ليس مستحيلًا.. إن الرجال نحيلي القوام ذوي العوينات صلع الرءوس يتشابهون... ثم إن الشارب يجعل الرجال جميعًا يحملون ذات الطابع..»

ـ «نعم.. ونفس الندبة في الكوع الأيسر!»
قالها وهو ينزع سترة البذلة.. ثم يطوي كم قميصه ليريني ما يتحدث عنه.. وكان صادقًا..
قليلون يعرفون بأمر هذه الندبة.. الكسر الذي حدث حين سقطت من فوق الأرجوحة.. كان ذلك في بيت خالي في (المنصورة).. سن العاشرة؟
الألم.. الجبس.. كسر لم يلتحم جيدًا.. ندبة..
فتحت فمي ومددت إصبعي داخله.. هنا صاح قبل أن أسأله:
ـ «تتحدّث عن الحشو الذي سقط في الضرس الثاني.. هو ذا! يُمكنك أن تراه وتتحسسه إذا لم تخش أن أعض إصبعك!»

- «أنا أشمئز من محتويات فمك!»
- «عسير على المرء أن يشمئز من فمه الخاص.. وأنت تدرك جيدًا أننا ذات الشخص..»
- «وتريد مني أن أصدق هذا؟»
- «تصديقك أو عدم تصديقك لن يضير الحقيقة.. إن الشمس تشرق من الشرق.. وعاصمة (النرويج) هي (هلسنكي).. أردت أو لم ترد..»

هذا صحيح.. حتى تعبيراتي الأثيرة يستعملها بذات الأسلوب..

لكن هناك تفسيرًا لكل هذا..

وواجبه أن يقدم لي هذا التفسير..

وهنا تذكرت خطأً صغيرًا ارتكبه وهو يتكلم.. فقلت مصححًا:

- «آ.. بالمناسبة.. عاصمة (النرويج) ليست (هلسنكي).. بل هي (أوسلو)!»

* * *

٧ - المكاشفة..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا يجب اعتبارها حادثة غير عادية.. حادثة يجب التوقف عندها بعض الوقت..

* * *

قال في إصرار:

- «بل (أوسلو) عاصمة (فنلندا).. ودعك من دقتك الجغرافية هذه.. فالوقت ليس وقتها..»

قلت وأنا أواصل تنفيض ثيابي:

- «كما أرى.. لست وقحًا فحسب.. بل أنت جاهل أيضًا..»
ثم أردف:
- «لم لا نذهب إلى أي مكان لنتكلم كالمتحضرين؟»
قال في سأم:
- «لن يكون هذا مناسبًا.. إن تشابهنا لمريب ويلفت الأنظار أكثر من اللازم.. لتكن لقاءاتنا كلها هنا في هذا الموضع المنعزل..»
سألته وأنا أثبت عيني في عينيه محاولًا أن أسبر غوره:
- «والآن.. من أنت؟»
- «لقد صار هذا مملًا.. أنا (رفعت إسماعيل)... ولكن من بُعد آخر!»

فتحت فمي غير فاهم.. الكلام له مذاق من قصص الخيال العلمي.. لكني لا أفهم ما يعنيه حقًّا..

قال في تؤدة وهو يتأمل البحر:

- «هل عندك فكرة عن الموضوع؟»

- «لا!»

- «حسن.. أنت تعرف أن ضخامة حجم الكون غير المتناهية قد جعلت مجرات عديدة تمر بذات الظروف التي مرّت بها هذه المجرة.. وفي هذه المجرات شموس.. وحول كل شمس كواكب ربما مر أحدها بذات ظروف الأرض.. وهكذا يوجد ألف (رفعت إسماعيل) في الكون في هذه اللحظة!» نظرت إليه مذهولًا:

- «أنت تتحدّث عن العوالم الموازية[2]!»

- «هو ما تقول.. انا نسختك القادمة من عالم مواز آخر.. أنا أعرف أنك ستفهم ما أقول لأن ذكاءك هو نفس ذكائي.. وكل ما نحبه واحد.. وكل ما نكرهه واحد..»

كان الأمر مذهلًا.. لكني مرغم على تصديقه.. كل الملابسات تحملني على تصديقه.. إما هذا وإما الاعتراف بأنني مجنون..

هأنذا واقف على الشاطئ مع نسخة أخرى مني.. أتحدث معه عن نظرية من نظريات الخيال العلمي عسيرة التصديق.. إذن هو الجنون ذاته!

عدت أسأله:

- «ومن أين جئت؟ من وعاء الدب الأكبر؟»

مط شفتيه وقال وهو ينظر للسماء:

- «إن شرح هذا عسير.. لكننا - في عالمي - نسمي كوكبنا (الأرض) مثلكم.. وتقدمنا العلمي لا بأس به.. لهذا نصدق أشياء كهذه..»

- «وهل جئت هاهنا في طبق طائر؟»

- «بل عن طريق مدفع طاقة.. لا يمكن تحقيق هذه الأسفار ما لم تتخلص من جزيئاتك.. وإلا تحولت إلى رماد كوني.. نحن نحول الجزيئات إلى طاقة تعبر الكون بمربع سرعة الضوء، ثم يُعاد تجميعها عند الوصول إلى هدفها..»

- «هذه المدافع متوافرة عندكم؟ إذن لماذا لا أرى مئات النسخ لكل معارفي؟ إن هذا النوع من السياحة مثير كما تعلم؟»

قال وهو ينحني ليلتقط بقايا عويناته المهشمة:

- «من قال إنها متوافرة؟ يوجد مدفع واحد في اليابان.. وقد قاموا بانتقاء سبعة أشخاص من جنسيات مختلفة ليقوموا باختبار سبعة كواكب في أبعاد أخرى.. إن (رفعت) في كوكبنا وكوكبكم لمن المهتمين بخوارق الطبيعة.. وقد صارت شهرته لا بأس بها في هذا الصدد.. لهذا وقع الاختيار عليّ كي أكون أحد هؤلاء السبعة المحظوظين.. وهأنذا هنا أقف مع نسختي مبرهنًا على صحة الافتراضات العلمية الخاصّة بالعالم الموازي..»

- «وكيف وجدتني؟»

ابتسم في تؤدة.. وقال:

- «يا له من سؤال! إنني أعيش في العنوان ذاته.. وفي جيبي ذات مفتاح الشقة ومفتاح السيارة.. أحيانًا يصعب عليّ أن أصدق أنني في كوكب آخر.. كل شيء يسير كما تركته في عالمي..»

فكرت هنيهة.. ثم قلت وقد تذكرت:

- «وطبعًا (هلسنكي) هي عاصمة (النرويج) عندكم..»

قال في دهشة:

- «طبعًا.. أليست كذلك عندكم؟ آه.. فهمت.. لا بد من بعض الاختلافات بين الكوكبين.. فمثلًا أنا أكثر صحة وإيجابية منك..»

يا للجنون! كل هذا غريب.. لكني ميال إلى تصديقه بالتأكيد..

عدت أسأله ورذاذ البحر المالح يداعب وجهي:
- «وأين تقيم هاهنا؟ لم نلتق في شقتي قط..»
- «اخترت أحد الفنادق.. فلم يكن الصراع بيننا مرغوبًا فيه في وقت مبكر..»
- «لكنك تدخل وتخرج من شقتي كأنها ملكك..»
- «إنها ملكي!» - قال ضاغطًا على كلماته - «حاول أن تفكر جيدًا في الموضوع من ناحية أخلاقية تجد انني امارس حقي الطبيعي في التعامل مع ممتلكاتي.. كل من هو (رفعت إسماعيل) المولود في (كفر بدر) في يوليو ١٩٢٤ له حق التعامل مع هذه الشقة..»

- «... واللحم يا وغد!»
- «إن ثلاجتك خاوية.. ولست راغبًا في الموت جوعًا..»
- «... و(كاميليا) يا لعين!»
- «إنها زوجة لا بأس بها.. وأرى أنها مناسبة لي..»
- «... و(سهام) يا حقير!»
ابتسم وقال في بساطة:
- «أمّا هذه فمجرد وسيلة لجعل حياتك لا تطاق!»
- «لا أفهم..»
جذب يدي في رفق كما نجذب يد طفل.. وقال:
- «تعال نتمشي على الشاطئ قليلًا.. لا جدوى من قضاء العمر هاهنا..»

وتأبط فردتي حذائه، وإلى جواري مشي عاري القدمين، يتسلى بمداعبة الأمواج لقدميه.. فتارة تتسخان بالرمال.. وتارة تنظفان..

قال لي:

- «كما قلت لك هناك اختلافات ما بين الكوكبين.. اختلافات صغيرة لكنّ لها تبعات هائلة.. كلانا كان مخطوبًا لـ (هويدا) أو خاطبًا لها.. لا أدري بالضبط.. لكنك تشاجرت معها وأنهيت الأمر.. أمّا أنا فكان احتمالي أقوى منك.. وتسامحي أشد.. لهذا نجحت في إصلاح الأمور.. وتزوجتها..»

في ذهول نظرت له:

- «أنت تزوجت (هويدا)؟»

- «نعم.. ولّى منها طفل اسمه (ناجي)!»
مررت الاسم على لساني مجرمًا مذاقه.. وغمغمت:
- «(ناجي رفعت اسماعيل).. ليس اسمًا موسيقيًا.. يبدو لي ملفقًا!»
- «ربما.. في البدء.. لكنّ سرعان ما تعتاده حين يتعلق الأمر بكائن حي يلعب ويكبر أمامك..»
نظرت له في دهشة من جديد..
إذن فهذا الأخ فأر تجارب يمكن أن أعرف منه بالكامل ما كان سيحدث لو تزوجت (هويدا).. إن لعبة (ماذا إذا؟) أو (what if) تثير شغفي دومًا..
ماذا إذا عاش (هتلر) واحتل العالم؟ ماذا إذا لم يأخذني خالي للحياة معه في

(المنصورة)؟ ماذا إذا وصلت إشارة (عجلون) إلى (مصر)، وخرجت طائراتنا للتصدي للطائرات الإسرائيلية في ٥ يونيو ١٩٦٧؟

قلت له وأنا أشعر بأنه ليس مقيتًا إلى هذا الحد:

- «وكيف كان الزواج منها؟»

- «ماذا تتوقع؟ إن (هويدا) من الفتيات الرقيقات الحالمات...... حتى تجد زوجًا.. عندها لا يعود لديها وقت لهذه الترهات.. أنت تعود من عناء العمل لتجد امرأة شرسة منكوشة الشعر، لم تبدل قميص نومها منذ أسبوع برغم كل بقع الزيت عليه، ولا يسرها سوى انخفاض سعر الطماطم.. ولا يضايقها سوى ارتفاعه..

وليس عندها ما يهمك.. وليس عندك ما يهمها لأن كل ما تتحدّث أنت عنه سخف.. مجرد هلاوس من دماغ فارغ مترف!»

سرّني ما قال.. إذن أنا لم أخسر الكثير حقًّا عدت أسأله:

- «وماذا عن (كاميليا)؟»

قال لي وهو يبتسم في إنهاك:

- «إننا أرقى منكم علميًا بعض الشيء.. لهذا قمنا بتطوير حاسب الى قادر على دراسة احتمالات المستقبل.. أنت تعطيه المعطيات وهو يصل إلى النتائج، يقدمها لك في صورة فيلم متكامل على الشاشة.. ويبدو - من وجهة نظر الحاسب الآلي - أن (كاميليا) ستكون زوجة لا بأس بها.. إنها بحاجة إلى بيت وأطفال.. عندها ستكف

عن التحذلق.. لن تكون أستاذًا للفلسفة في دارها.. بل ستكون أمًا.. أمًا فاضلة..»
قلت وأنا أداري ضحكة خبيثة:
- «لهذا أنت هنا.. لقد فررت من كوكب بأكمله كي تتجنب (هويدا) المزعجة وتتزوج (كاميليا) الوفية.. أليس كذلك؟»
لم يضحك.. وبجدية كاملة قال:
- «... لقد قلتها.. إن هذا هو أهم سبب يرغبني في الحياة ها هنا..»
ثم ارتسمت على وجهه مخايل شيطان يحلم..
- «إن حياتك هنا ملأى بالفرص التي لم تقتنصها ولن تفعل.. لأنك أكثر جبنًا مني.. أمّا أنا فقد جربت كل شيء في عالمي وفشلت فيه.. لكني أعرف الصواب

وأستطيع أن أفعله هاهنا.. إنك قادر على إعطائي فرصة نادرة: فرصة البدء من جديد.. أنت لم تبدّد حسابك في البنك بعد.. لم تبع نصيبك في الأرض التي ورثتها عن أمك بعد.. لم تتزوج (هويدا) ولم تطرد (كاميليا) من حياتك بعد..

حتى برنامجك الإذاعي الذي بدأ يعطيك قسطًا من الشهرة؛ لم تمنعه الرقابة بعد... إن المكان شاغر لـ (رفعت إسماعيل) آخر يعرف ما يفعله!»

ثم التقط أنفاسه.. وفي إرهاق قال:

- «لهذا جئت لأخذ مكانك هاهنا!»

*   *   *

٨ - كوكب لا يسع اثنين..

كلنا يعرف أن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لكنّ صراعات مروعة قد تنجم عن هذا اللقاء إذا حدث..

* * *

- «يا للسخرية! وتظن أنني سأتركك تأخذ مكاني؟»

قال في نفاد صبر:

- «بالطبع لن تفعلها إلا مجبرًا.. وأنا أعرف كيف أجبرك.. هذا الكوكب لا يسع اثنين يا عزيزي (رفعت).. وعليك أن تفهم



ثم التقط أنفاسه .. وفى إرهاق قال :

ـ « لهذا جئت لأخذ مكانك ها هنا ! »

هذا بالحسنى.. وتعود بدلًا مني إلى كوكبي حين يأتي ميعاد العودة.. فالحياة هناك تناسب إنسانًا رخوًا سلبيًا مثلك..»

- «أنت مجنون!»

- «ربما.. لكني قادر على جعل الحياة لا تطاق بالنسبة لك هنا.. أنت تعرف أنني قد زرت (سهام) في شقتها صباح اليوم.. بالطبع رحبت بي وأكرمت وفادتي.. هنا فتحت الموضوع الشائك الذي جئت من أجله: أنا أحبها.. وأريدها أن تتخلى عن (عادل) من أجلي.. بالطبع فقدت البائسة تعقلها وانهالت عليّ لومًا وتقريعًا، وطردتني من المنزل دون رحمة.. بعد هذا جاء (رفعت اسماعيل) البريء الذي لا يعلم شيئًا عما حدث؛ ليزور (عادل) ويأتي

معه للغداء.. أية وقاحة هذه! أية سفالة! تصوّر مئات المواقف المماثلة!»
صعد الدم إلى رأسي حتى غدا العالم أحمر كعرف ديك.. وصحت:
- «أيها اللعين! لماذا فعلت هذا؟»
- «الجواب معروف.. لأجعل هذا الكوكب لا يُطاق بالنسبة لك.. سيكون الفرار إلى عالم مواز - أو إلى القبر - هو الحل الأخير في جعبتك!»
- «لكنه سيكون عالمًا مستحيلًا بالنسبة لك أيضًا!»
- «هذه مشكلتي.. إنني شخص ناضج يعرف كيف يتولى أموره..»
كنا قد وصلنا إلى نهاية الشاطئ، حيث مجموعة من الصخور كساها الطحلب..

وكنت قد وصلت إلى سؤالي الأخير:
ـ «وماذا إذا رفضت؟»
التقت عيناه بعيني.. وقال في هدوء:
ـ «لن يكون لي بديل عن قتلك!»

* * *

مبلبل الأفكار عدت إلى البنسيون.. حزمت حقائبي وتهيأت للرحيل..
يجب أن أعود إلى (القاهرة) اليوم.. الآن.. قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.. فأنا عليم بما يستطيع هذا الوغد أن يحدثه من ضرر..
دفعت إيجار اليوم.. وهرعت إلى سيارتي..

وراحت معالم (الإسكندرية) تهرب مني إلى الوراء..
من أدراني أنه لن يبقى في (الإسكندرية)، ليواصل إفساد حياتي؟ لكني وجدت أنه قادر على إحداث ضرر بالغ في (القاهرة).. أمّا هنا فليس لي سوى (عادل)، وأم (هويدا) العجوز التي أستبعد أن يخنقها تاركًا بصماتي على أكواب الماء في شقتها..
إنه لموقف عصيب!
يوجد شخص آخر يشبهني، وله بصماتي، وهو مصمم على إفساد سمعتي!
ولا يحدث هذا إلا لي......
(كفر الدوار).. (إيتاي البارود)..

ماذا قال؟ قال إن عليّ لو قبلت عرضه أن أقف في مكان معين فوق سطح داري.. المكان الذي يلمسه ظل هوائي التلفزيون في السابعة صباحًا يوم الجمعة القادم ـ أي بعد أسبوع ـ وعندها ستهبط الطلقة التالية من مدفع الطاقة إياه.. عندها تبدأ عملية الاسترداد..

وماذا لو لم يقف أحدنا فوق السطح؟

عندها يُرزق العالم باثنين (رفعت اسماعيل) للأبد.. وهو أمر غير مقبول.. لهذا سيكون على أحدنا أن يقتل وعلى الآخر أن يُقتل..

(كفر الزيات).. (طنطا)..

ولماذا أقبل أن أترك عالمي من أجل وغد مدّع؟ لماذا لا يرحل هو؟

إن الإيذاء لعبة لإثنين.. لكنه لن يترك هذا العالم قابلًا للحياة فيه بعد رحيله.. هذه هي المشكلة..

(بركة السبع).. (بنها)..

صبرًا أيها القادم من عالم فيه (هلسنكي) عاصمة (النرويج)! لسوف أدبرك.. وستعرف أنني لست سهل الهضم..

(القاهرة).. العجوز المنهكة:..

عرجت على أول (سنترال) وجدته، وقد خطر لي خاطر مزعج..

أدرت قرص الهاتف طالبًا مديرية الأمن في (الإسكندرية).. وانتظرت في توتر حتى سمعت صوت (عادل) يسألني عما هناك..

- «(رفعت)؟ أبهذه السرعة؟»

ابتلعت ريقي.. وسألته بدوري:

- «لم أقل لك إنني مسافر.. كيف عرفت؟»

- «كنت عندي منذ ساعة.. هل نسيت؟ أنت تتكلم من (القاهرة) طبعًا.. يبدو هذا مثيرًا.. أرجو أن تتمكّن من اللحاق بموعدك..»

- «أي موعد؟»

نفد صبره.. فقال في خشونة:

- «موعدك مع ذلك الدائن.. الخمسمائة جنيه التي اقترضتها مني.. أتراك نسيت أم أنك تلعب بي؟ لا تبدو لي على ما يرام يا (رفعت)!»

وابتلعت ريقي من جديد.. فعلها اللعين.. ولم تعد جدوى من محاولة الإنكار.. لهذا

قلت لـ (عادل) كمن يتذكر:
- «آه! آه! عفوًا فأنا أنسي سريعًا هذه الأيام.. لا تقلق بصدد مالك يا (عادل).. سيكون عندك بعد أسبوع..»
- «لا عليك.. وإلا فما نفع الأصدقاء؟ على كل حال قد سررت حين عرفت أن الديون هي سبب شرودك وغرابة أطوارك.. ولكني أصارحك يا (رفعت) بدهشتي من أستاذ جامعة في هذه السن؛ ولا يملك خمسمائة جنيه في وقت الطوارئ.. إن التبذير لم يكن......»
لا أجد الوقت مناسبًا لهذا الهراء..
لذا صحت فيه في غلظة:
- «(عادل).. اسمعني.. إياك أن تسدي لي أي خدمات مالية، أو تصدق أي حرف

أقوله لك، أو تسمح لي بزيارة دارك لمدّة أسبوعين من الآن.. هل تفهمني؟»

- «طلب غريب حقًّا.. هل أنت..؟»

- «لا وقت للشرح.. وداعًا!»..

ووضعت السماعة..

ها هي ذي أولى خسائري.. كل الناس تشك في حالتي العصبية حاليًا..

ولا ألومهم على ذلك أبدًا.

ثم هرعت إلى سيارتي فاستقالتها إلى داري..

***

أحضرت المفك وعالجت قفل الباب، ثم استبدلت بقلبه ذلك القلب الذي ابتعته من

(الإسكندرية).. وهكذا لن يدخل الشقة سواي..

لقد تأخرت هذه الخطوة كثيرًا.. ربما لأنني كنت أحسبني مخبولًا لا أكثر.. أمّا الآن فأنا أعرف أن العدو هنا.. وقريب جدًا..

ثم رفعت سماعة الهاتف، وأدرت بضعة أرقام على القرص..

صوت أنثوي ذكرى يتساءل عن المتكلم:

- «أنا (رفعت) يا (كاميليا)..»

- «مرحبًا (رفعت).. اتصلت بك أمس لأقول إنني - بعد عدة تحفظات وشروط - على استعداد لأن أقب.....»

سارعت بمقاطعتها قبل أن يخرج حرف (اللام) القاتل من فمها:

- «نعم.. أعرف أنك مترددة يا (كاميليا).. وأنا لن أثقل عليك..»
وابتلعت أكبر قدر من الهواء لأتمكن من التلفظ بالتالي:
- «يبدو أنني وضعتك في مأزق حرج.. صداقتي أم حبي؟ لن أضايقك أكثر من هذا.. صداقتك تعني لي كل شيء.. ويمكنني أن أتحمل الحرمان من حبك ما دمت ستكونين صديقتي.. حسن.. اعتبري أنني لم أقدم عرضًا!»
كنت أتكلم وأنا أعتصر السماعة كالثعبان في يا له من موقف! يا له من موقف!
قالت لي في تردد:
- «لكني لم أقل ذلك.. ربما كانت هناك فرصـ.....»

- «لا يا (كاميليا).. أنا لن أثقل عليك مرّة أخرى.. فأنا أعرف حدودي.. وقد حسبت للحظة أن النجوم قبضتي من موقف من حقي.. لكنّ كنت أحمق ديدني..»

لقد لعبت الدور كأعظم ممثل شكسبيري..

أعرف أنها لا تفهم.. أعرف أنها تشعر بالإهانة.. أعرف أنها تعتبرني حمارًا أو مهرجًا سخيفًا.. أعرف أنني بالغت في تقليل شأني..

لكني مرغم.. يجب أن أقطع هذا الجسر على الوغد الآخر..

سمعتها تقول في خيبة أمل تداريها:

- «حسن.. كما تشاء.. والآن وداعًا..»

- «وداعًا!»

ووضعت السماعة..

رجل يعرض الزواج على امرأة ويتوسل لها.. ثم يعتذر عن عرضه حين توشك هي على القبول! أي نذل هذا.. ومن أية مباءة جاء؟

المهم أنني - بجراحة دامية ـ نجحت في قطع ذيول هذا الموضوع الشائك.. وهأنذا قد فقدت اسمًا جديدًا في لائحة أصدقائي..

هل سيتصل بها؟ هل يكرر العرض؟

هذا جائز.. لكنّ كبرياء الأنوثة عاتية حقًّا... وهناك احتمال ٩٩,٩٩ ٪ أن تغلق السماعة بمجرد سماع صوته..

ماذا بقي لي من أعمال مهمّة؟

هرعت إلى البنك.. وطلبت تغيير توقيعي.. ها هي ذي مشكلة جديدة تم حلّها..

ثم اتجهت إلى الجزار - اللحام حتى لا أستفز المجمع اللغوي ـ وأخبرته برسالة غريبة بعض الشيء: لا تبع لي لحمًا لمدّة أسبوعين.. حتى لو بدا لك أنني أموت جوعًا!

رجل ثالث يحسبني جننت.....

لن تكون هناك مشاكل في الجامعة لأن إجازتي لم تنته بعد..

هل نسيت شيئًا؟

طبعًا نسيت!

* * *

٩ - ثغرات.. ثغرات..

يقولون إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لكنّ عليك أن تتذكر كل ما كنت تفعله كروتين قبل هذا اللقاء..

* * *

أول الغيث قطرة..

وقطرتي كانت مع رنين الهاتف اللحوح المزعج.. رفعت السماعة وأنا أتمنى أن يكون المتكلم أمامي لأخنقه..

كان هذا صوت (رضا) أخي يتحدث من (كفر بدر).. فصحت:

- «مرحبًا (رضا).. هل ماتت زوجتك؟ سيؤسفني هذا كثيرًا..»

لكنه لم يكن ذا مزاج للمزاح.. وسمعته يقول بصوت متجهم:

- «لماذا لم تقل لي إنك تريد بيع القيراطين؟»

قيراطين؟ هناك خطا ما..

- «من قال هذا الكلام الفارغ؟»

- «(عبد المنصف).. ألم تزره منذ يومين وتطلب منه أن يجد مشتريًا على وجه السرعة؟ هذه أشياء غير مفهومة يا (رفعت).. من العار أن أعرف هذا من الغرباء.. ثم إنني مستعد للشراء إذا أردت بيعًا.. أنت تعرف هذا جيدًا وبرغم ذلك.. وبرغم ذلك......»

آه! فهمت سر اختفاء (رفعت إسماعيل) الآخر عني منذ عدت إلى (القاهرة).. كان هناك في (كفر بدر) يبيع القيراطين اللذين أملكهما.. وطبعًا لن يصدّق (رضا).. حرفًا من تفسيري للأمر..

- «حسن يا (رضا)... اذهب لـ (عبد المنصف) وقل له إنني تراجعت... لن أبيع.. وأمنحك صلاحية مطلقة لمنع أي محاولة للبيع!»

- «لكنّ.. أتراك مريضًا يا أخي؟»

- «افعل ما قلت يا (رضا) أرجوك..»

وأنهيت المكالمة..

هو ذا شبيهي يتصرّف بأسلوبه المعتاد.. الضرب تحت الحزام.. ولا شك أنه ذهب إلى البنك ليسحب كل مدخراتي، لكنه

اصطدم بتغيير التوقيع.. لا أعرف كيف تخلص من هذا الموقف.. لكنه راح يحاول لعبة جديدة في (كفر بدر)..

إن السيطرة على أفعاله شبيهة بالسيطرة على قطيع من الخراف الهائجة.. كلما سيطرت على عشرة منها فر اثنان.. طارد الاثنين تجد أن العشرة قد فرت بدورها..

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه..

كان هذا هو الحاج (عرفة) صاحب المنزل.. وهو تاجر خردة واسع الثراء.. لكنّ كبر السن أورثه ضيق خلق وجهامة.. ولم يكن من المعتاد أن يزور شقتي إلا في المصائب

حييته.. لكنه لم يكن ودودًا.. دعوته للدخول فلم يبد على استعداد..

ـ «خيرًا يا حاج؟»

سعل مرارًا.. وبصق.. وراح يهز عصاه في عصبية مرددًا:

- «من أين يجيء الخير؟ من أين يجيء؟ أبعد كل هذا العمر والعشرة تحرر ضدى محضرًا في المخفر؟ لم؟ ولم تراع هذه الشيبة؟»

كان التفسير واضحًا.. مأزق جديد من المآزق التي صارت إيقاع حياتي في الآونة الأخيرة..

- «بعد كل هذا العمر تشكوني لأن مصباح السلم مكسور؟»

إذن مصباح السلم مكسور.. هذا جديد عليّ.. وطبعًا قام شبيهي بعمل ما يلزم

لتدمير العلاقة بيني وبين صاحب الدار للأبد..

رحت أعتذر للشيخ عاجزًا عن إيجاد تفسير مقنع..

وفي النهاية وعدته بالتنازل عن المحضر.. لكنّ هذا لم يكن عذرًا كافيًا.. فالمحضر لا يهم.. المهم هي الروح الخسيسة الشريرة التي أملت علي ما فعلت..

وانصرف غاضبًا.. وأنا أبحث عن شيء أقوله..

* * *

ثالث قطرات الغيث..

* * *

عند البقال.. وقفت أنتظر دوري.. ثم تقدمت إلى النضد الرخامي الذي تعلوه شظايا الجبن الرومي... وبقايا الخل.. والزيت..

- «هل يوجد عندكم جبن دمياطى جيد؟»

كانت الحسناء الواقفة جواري تحدجني بعينين متهمتين..

ثم ازدادت عيناها اتساعًا..

نظرت لها في غباء.. أنا لم أرها من قبل..

ثم تذكرت أن كل شيء ممكن في هذه الآونة..

هذه الفتاة تعرفني.. وقد آذيتها أذىً كبيرًا في وقت ما.. هذا أكيد...

رأيتها تجذب وحشًا مفتول العضلات من ذراعه.. وكان يقف جوارها منهمكًا في تذوق قطعة من الجبن ناوله البقال إياها ليجربها..

نظر لي بدوره وفي عينيه نظرة تنذر بحش الرقاب..

وسمعتها تقول له:

- «(ميمي)! هذا هو الوقح الذي عاكسني أمس!»

نظرة حش الرقاب صارت نظرة فتح كروش... وهو يرمقني مذهولًا ويقول:

- «هذا؟ (خيال المقاتة) هذا؟»

- «أقسم لك.. قال عبارة غزل ثم أرسل قبلة في الهواء، وانصرف!»

هنا ازداد الأخ (ميمي) هياجًا.. وتكورت العضلات في ذراعيه وصدره.. ورأيته يتقدم مني وهو يزأر كالنمر.. الجبن يتساقط من شفتيه مع اللعاب.. لم أنتظر لأقدم تفسيرات أو أسئلة.. أنا أعرف أنّ هذا حدث.. أعرف أنّ هذه هي الحقيقة..

وقبل أن أفهم أنا نفسي ما يحدث، أطلقت ساقي للريح.. إنني خفيف الوزن على كل حال.. لكن منظري بدا لي مهينًا.. مهينًا إلى حد لا يوصف..

بعد كل هذه السنين... أنا د. (رفعت إسماعيل) يهرب كأرنب.. ومتهم بمعاكسة امرأة!

ولو أمسكني هذا الأخ (ميمي) لتناثرت كرامتي مع دمائي في كل أرجاء الشارع.. تدوس عليها الكلاب وأحذية العابثين..

وحين ابتعدت بمسافة كافية؛ أرحت ظهري إلى جدار.. ورحت ألهث.. وعيناي تدمعان قهرًا...

ورحت أردد دون كلل: سوف أقتله! سوف أقتله!

❋ ❋ ❋

وتحت باب شقتي وجدت ورقة دسّها أحدهم لي.. تقول:

- «اهرب بجلدك! أنا أعرف كيف أتوافق مع هذا الجحيم.. أمّا أنت فلا..»

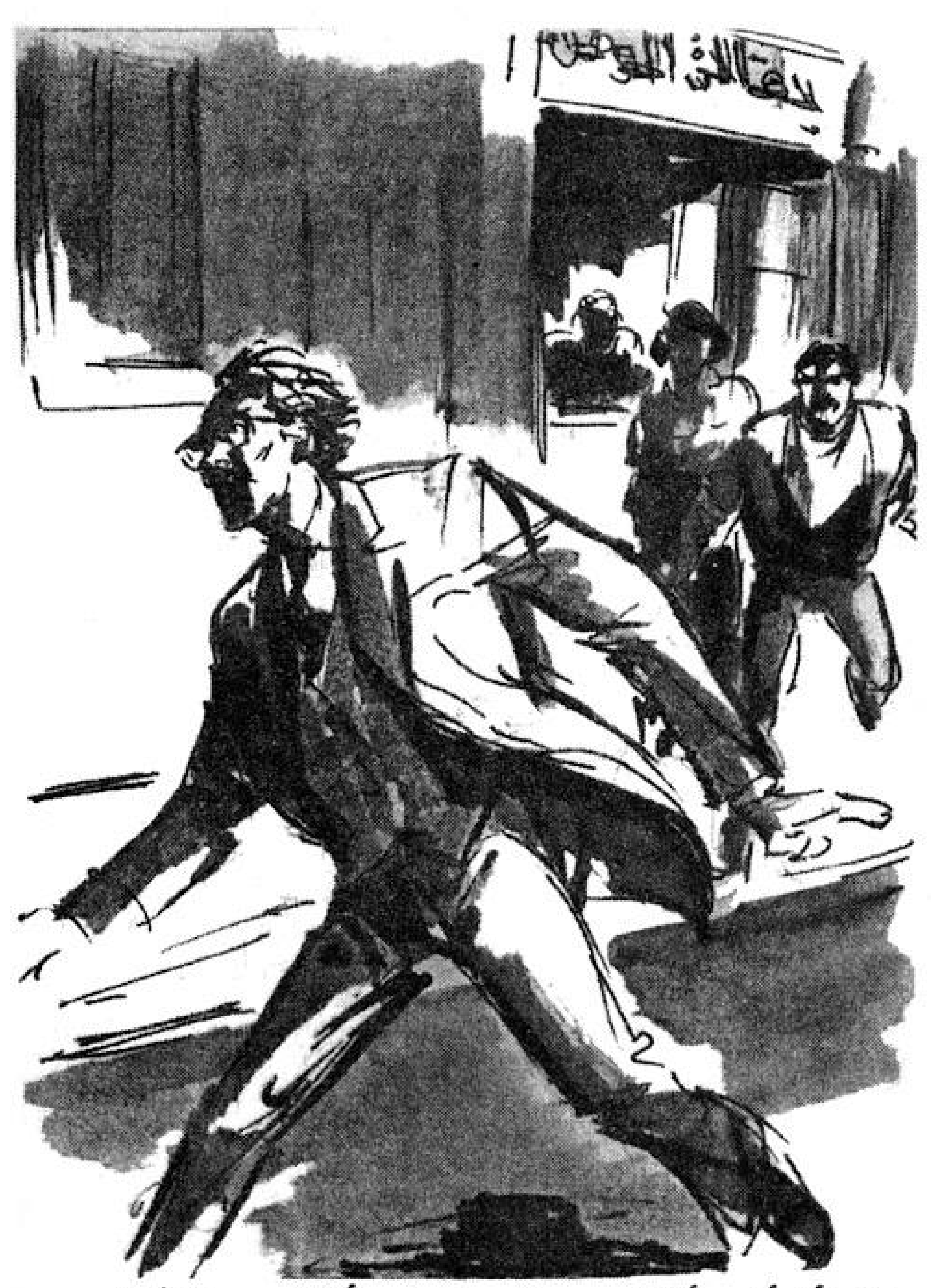
لم يكن ثمّة داع للتوقيع.. لأن الخط خطي ذاته..

❋ ❋ ❋

ثم انهمر الغيث..

صار مألوفًا أن يتهمني كل الناس بأشياء لم أعملها..

جاري - المهندس الشاب - جاءني ومعه طفلته الصغيرة.. كانت تنتحب في حرارة



وقبل أن أفهم أنا نفسى ما يحدث ، أطلقت ساقىّ للريح ..
إننى خفيف الوزن على كل حال ..

وفي يدها دمية مكسورة..
تقول الطفلة إنني قابلتها على السلم، فانتزعت منها الدمية وهشمتها بضربها في الحائط مرارًا.. ثم صفعت الطفلة وانصرفت.. فما هو دفاعي؟!

أقسم بالله إنني لم أفعل..

وبعد جدل عويص وتلويح بالأيدي، يحاول الرجل إقناع نفسه أن الطفلة تكذب أو تتوهم.. أمّا أنا فأعرف أن كل حرف قالته صدق..

ثم يجيء البواب ومعه صديقان له.. ليلومني على السبّة التي أطلقتها عليه.. لم أفعل.. أقسم بالله لم أفعل..

وينتهي الموقف على تراضٍ غير ذى أساس..

❋ ❋ ❋

لم أفعل.. أقسم بالله لم أفعل..

❋ ❋ ❋

بعد يومين في هذا الجحيم كنت قد حزمت أمري..
سأقتل (رفعت إسماعيل) دون شفقة!

❋ ❋ ❋

١٠ - ألعاب القتل..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم... لهذا يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كي يقتل هذه النفس دون أن يموت هو نفسه!

* * *

أراكم مندهشين!

هو ذا العجوز المسالم (رفعت إسماعيل) الذي اعتاد أن يبيت مظلومًا لا ظالمًا؛ يتحدث عن القتل في تصميم حاقد..

خذوا الموقف من الناحية الأخلاقية..

أولًا: أنا لن أقتل سوى نفسي.. لكنه وضع فريد لن يكون من السهل أن تعتبره انتحارًا، لأنني سأظل حيًا بعد هذا..

ثانيًا: إن قتل الأفاعي السامة ليس جريمة، وقد أثبت هذا الـ (رفعت).. أنه أشد أذى من كل الأفاعي المقرنة وذات الجرس.. ثم إن أحدًا لن يساعدني سواي.. لا جدوى من أن أشكوه إلى الشرطة..

ثالثًا: لو أنك صادفت طبقًا طائرًا ونزل منه كائن مغطى بالحراشف، وله لسان مشقوق وثلاث أعين... عندها يُمكنك أن تقتله.. من الناحية الأخلاقية لن يتهمك أحد بأنك قاتل آثم.. قوانين الأخلاق لا تتضمن تلك الكائنات الشنيعة القادمة من عوالم

أخرى.. وهذا الـ (رفعت) كائن قادم من عالم آخر..

صحيح أنه يبدو بشريًا.. صحيح أنه مثلي ومثلك.. لكن القاعدة لا تتحمل أية استثناءات..

هذا عن الناحية الأخلاقية..

من الناحية الأمنية لن تكون هناك مشكلة.. فهذا الـ (رفعت) لا وجود له.. وطالما أنا حي أرزق فلا جريمة هنالك..

يبقى الآن التدبير العملي لهذه الجريمة..

١ - يجب أن يكون قتلًا سهلًا لا يحتاج إلى مجهود عضلي..

٢ ـ يجب أن تختفي جثته تمامًا.. كأنما لم يوجد

٣ - يجب أن أكون حذرًا.. لأنّه - بالتأكيد - يتوقع هذا.. ولأنه يحمل مسدسًا طبعًا ما دام نسخة أخرى مني...

الآن - بوصفي قاتلًا مرتب الذهن - غدا من واجبي أن أضع الطرق المختلفة للقتل على الورق، مع اختيار أفضلها وأنسبها..

١ - القتل بالخنق.. الشنق.. العنف الجسدي: بالتأكيد لا يصلح.. فنحن متعادلان في القوة.. بل كفته أرجح قليلًا.. وهذا يعني أنه قادر على سحقي متى شاء..

٢ - القتل رميًا بالرصاص: حل لا بأس به، ولا يحتاج إلى قوة جسدية.. لكنّ تبقى مشكلة صوت الرصاصة.. لا أملك كاتمًا للصوت ولا أعرف من أين أبتاع واحدًا..

(ربما لو استطعت تدبير لقاء في الصحراء لغدا هذا ممكنًا)..

٣ - القتل رميًا من عل: يحتاج إلى صراع عنيف.. ولربما كان هو الطرف الأقوى فيه.. ثم إن هذا القتل تتخلف عنه جثة.. والجثة ستثير أسئلة كثيرة.. خاصة أنها ستكون ملقاة في عرض الطريق..

٤ - القتل بالسم: حل رائع.. وغير خطر.. فقط يحتاج إلى جلسة صافية بيننا في مكان منعزل..

وهكذا استقر رأيي على القتل بالسم..

واتجهت إلى صيدلية داري، فاخترت بعض عقاقير القلب الفعالة.. إن أقراص (الديجيتالا) مناسبة جدًا.. يكفي أن أطحن منها ثلاثين قرصًا بقاعدة الكوب.. ثم

أضعها في وريقة صغيرة.. وأدس المسحوق في جيبي بانتظار اللحظة المناسبة..

وهكذا رحت أمضي الساعات استعدادًا لمهمتي الخاصّة هذه..

* * *

إنه يريد أن يطردني من وجودي.. يحتل عالمي.. لهذا صارت الحرب هي المخرج الوحيد لي.. ولتكونن حربًا ضروسًا لا تذر..

* * *

أين هذا الوغد؟ لماذا لا يتصل بي؟

* * *

في اليوم التالي لم تكن هناك مضايقات كثيرة..
فقط استدعوني إلى المخفر.. وهناك رأيت د. (رشدي) جالسًا ينتظر..
كان د.(رشدي) زميلًا لي في الكلية.. وكان متوترًا دومًا كذيل حية ذات جرس.. وله شعر أشيب ناعم ينساب على جبينه كلما حاول رفعة لأعلى.. ووراء عويناته تطل نظرة اتهام دائمة...
كانت بيننا منافسة طال أمدها.. فهو من نفس صفي الدراسى قديمًا.. وكلانا يحاول

أن يسبق الآخر بخطوة ليريه كم هو أحمق..
وفي الآونة الأخيرة ما بيننا عدم استلطاف متبادل، كان يتحول أحيانًا إلى تراشق بالاتهامات.. فأنا أعتقد - وأؤمن - أنه سرق إحدى أوراقي البحثية ونشرها باسمه.. أمّا هو فيؤمن أنني المسئول عن اختفاء عيناته المعملية من ثلاجة المستشفى.. وهذا كلام فارغ طبعًا..
كنا لا نطيق بعضنا.. لكننا حافظنا دومًا على روح التحضر بيننا.. ولولاها لهشم كل منا رأس الآخر على أقرب جدار...
كان جالسًا مع مأمور القسم يجرع بعض المياه الغازية من زجاجة، وحين رآني أشاح بوجهه بعيدًا وازداد توترًا.....

دعانى مأمور القسم للجلوس.. ثم قال في تحفظ:
- «معذرة يا د. (رفعت).. إنّه سوء تفاهم سيتم حله سريعًا..»
سوء تفاهم؟ ماذا حدث في هذه المرّة؟!
قال المأمور بنفس اللهجة المهذبة:
- «يبدو أنّ هناك من يستغل اسمك، ويداعب د.(رشدي) مداعبات قاسية.. لكننا واثقون أنّ هذا لم ولن يحدث بين أستاذي جامعة راقيين مثلكما!»
هنا صاح (رشدي) في هستيريا:
- «إنّه هو! الخط خطه والتوقيع توقيعه!»
نظر له المأمور كي يصمت.. ثم عاد يسألني بنفس الابتسامة المهذبة:
- «هل عندك فكرة عن هذا الخطاب؟»

مددت يدي لأتناول المظروف من يده.. وفتحته متوجسًا..

كان يفتقر إلى التهذيب.. هذا هو أقل ما أستطيع وصفه به.. ولما كان نصه غير قابل للنشر فإنني أرجو إعفائي من تلاوته عليكم.. لكنه ـ على كل حال - يحوي قدرًا لا بأس به من التهديد.. وعددًا محترمًا من نعوت (الحمار) و(الخنزير) و(اللص) و(المعتوه)..

كان الخطاب يهدد (رشدي) بقطع أذنيه إذا لم يكف عن سرقة بحوث العلمية.. وطبعًا كان الخط خطي دون حاجة لخبير خطوط، وكان مذيلًا بتوقيعى وباسمي.

مفاجأة جديدة يقدمها لي ذلك الـ (رفعت إسماعيل)..

رفعت الخطاب في يدي.. وقلت بلهجة من يجد كل هذا سخيفًا:

- «طبعًا لا داعي لإضاعة الوقت في مناقشة هذا الاتهام.. إن من يكتب خطابًا كهذا لا يوقعه باسمه أيضًا..»

نظر المأمور إلى د.(رشدي) وابتسم.. وهز يده.. كأنما يقول له: أرأيت؟ إن هذا منطقي جدًّا..

لكن د. (رشدي) هتف في عصبية وتعصب:

- «إن (رفعت) ذكي جدًا.. لقد وقع الخطاب كي يبعد الشك عن نفسه.. كان يعرف أننا سنقول ذات الشيء!»

قلت أنا محنقًا (وقد زاد من حنقي أنني أعرف أن كلامي كذب):

- «ولماذا أرسل خطاب تهديد؟ يمكنني دومًا أن أقول لك ما أريد بلساني.. لست مراهقًا يخشى أن يصارح ابنة الجيران بحبه، فيكتب لها خطابًا..»

قال المأمور بلهجته المهذبة الميالة إلى تهدئة الأمور:

- «أنا كذلك أرى أنّ هذا غير منطقي.. هناك من يلعب لعبة قاسية كي يوقع البغضاء بينكما..»

هتف (رشدي) وهو يزيح الخصلات البيضاء عن جبهته:

- «خبير خطوط! أنا أطالب بعرض هذا الخطاب على خبير خطوط.. عندها سيعرف الجميع أنّ هذا هو خط (رفعت إسماعيل)!»

آه ه ه! هذا هو ما أخشاه.. أنا أعرف جيدًا أن الخط خطي..
لكني تظاهرت بقوّة موقفي.. وباستخفاف قلت:
- «خبير خطوط! لمَ لا؟ وقارئ كف كذلك.. إن الخط يشبه خطي يا د. (رشدي).. لكنه ليس خطي.. هل هذا واضح؟ هناك من تعمد تقليد خطي ليحكم خداع شخص مثلك..»
صاح الرجل في عصبية بالغة وهو يشير إلى:
- «هل تسمع يا سيدي ما يقول؟ أنا أطالب بحمايتي من هذا الرجل.. فهو مجنون تمامًا.. مجنون ولا يتحكم لحظة في نفسه..»

ظل المأمور جالسًا ينقل عينيه بين وجهينا.. نظراته تقول بوضوح: تالله ما أغرب هؤلاء الأطباء! إنهم يجنون جميعًا في النهاية...

بعد هنيهة قال:

- «يمكنني تصعيد الأمر وعرضه على النيابة.. لكني لست ميالًا إلى هذا... فلسنا بصدد مشاجرة بالمطاوي (قرن الغزال) في مقهى.. بل هو خلاف بين عالمين.. لهذا أسألك يا د.(رشدي) أن تتناسى الأمر..»

ثم نظر لي.. وقال بلهجة مناشدة:

- «وأسألك أن تعتذر له يا د. (رفعت)!»

هنا (أخذتني العزة بالإثم) فواصلت تمثيل دوري..

- «أنا؟ أعتذر له؟ أعتذر عن أي شيء؟ أنا لم أكتب هذا الخطاب.. وعليه أن يعي ذلك... وإلا فليفعل ما يروق له..»

- «أرجو ألا تزيد الأمور تعقيدًا..»

ثم نظر إلى د. (رشدي) مناشدًا من جديد:

- «هلمّ.. تنازل عن شكواك.. الأمر ليس بهذا السوء..»

بعد دقائق وجدنا أننا أنهكنا الرجل أكثر من اللازم.. وكان الوقت قد صار مناسبًا لي كي أعتذر لا عن كتابة الخطاب.. بل عن ما سببته للرجل من صداع.. وقبل (رشدي) أن يتنازل بدوره..

وهكذا انتهت هذه الجلسة المرهقة..

وانصرفت و(رشدي) عدوين يتمنيان الدمار لبعضهما..

ضربة أخرى تحت الحزام من شبيهي.. وهي ليست الأخيرة.. إن الغيث ينهمر بغزارة.. يمكنه أن يفعل كل شيء: خطابات غرامية للجارات المتزوجات.. خطابات تهديد للجيران.. خطابات تحوي السباب لزملائي في العمل.. منشورات تهدد أمن الدولة يعلقها في كل مكان..

وفي جميع الأحوال يستطيع خبير الخطوط أن يؤكد ويقسم على أنّ هذا هو خطي..

سوف أقتله.. لا أجد حلًا أكثر رقة..

* * *

١١ ـ التسلل..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا ربما احتاج إلى البحث عن هذه النفس في كل مكان مطروق..

* * *

ولكن أين هو الآن؟

ما دام لا يبحث عنى فعليّ أن أبحث عنه..

إن يوم الجمعة يقترب.. وبعده سيكون عليّ أن أتحمل وجوده معي للأبد.. لكنه لن

يحاول تعكير حياتي وقتها.. بل سيحاول إنهاءها!
لقد تجاوزنا مرحلة (المقالب) إلى مرحلة القتل..
على أن أجده سريعًا.. لكنّ أين؟

* * *

هو قال إنّه يقيم في فندق...
يمكننا هنا أن نستغل التشابه الشديد في طباعنا، لنتوصل إلى هذا الفندق.. هو فندق من النوع الذي يناسبني.. نظيف.. صغير.. ثم هو فندق رخيص الثمن.. لأن إمكاناته الماديّة محدودة..

أضف لهذا أنه فندق دان من بيتي.. ما دام الرجل يحوم حول منطقة سكني بهذا الإفراط.. وهو لا يملك سيارة.. ولا يستعمل سيارتي في المعتاد..

وهكذا ـ وعلى طريقة (هولمز) الشهيرة ـ أمكنني أن أركز شكوكي في ستة فنادق.. كلها تتمتع بالشروط الثلاثة..

ورحت أجول بينها بالسيارة.. بعدما أعددت بعض احتياطات ضروريّة..

دخلت فندقين لأسأل عن (رفعت إسماعيل).. وهو سؤال غريب طبعًا لو اتضح أن الرجل يقيم في أحدهما.. (رفعت) يسأل عن (رفعت).. سيجن موظف الاستقبال حتمًا..

لكن الفندق الثالث أراحني من عناء السؤال.. كان اسمه (فندق المهراجا).. وهو اسم غريب لا يبعث الطمأنينة في النفس...

فما إن دخلت إلى ردهة المكان، حتى وجدت موظف الاستقبال يمد يده ـ دون أن ينظر لي ـ ليلتقط مفتاحًا من اللوحة خلفه، ويناوله لي دون اكتراث.. ثم يعود لمطالعة الجريدة التي أمامه..

فهمت! هذا هو الفندق المقصود.. والموظف يحسبني أنا (رفعت إسماعيل) غير عالم ـ الأحمق - أنني (رفعت إسماعيل)!

للأسف فاتني أن أعرف رقم الحجرة.. فاللوحة بها عدة مفاتيح ناقصة.. لهذا

استجمعت شجاعتي وسألته أسخف سؤال ممكن:

- «معذرة! غرفة رقم.....؟»

ارتفع حاجباه في دهشة.. ونظر لي هنيهة ثم قال:

- «رقم ستة وخمسين! هل نسيت يا دكتور؟»

حاولت أن أبرر موقفي بشرود الذهن.. حكيت له عن الأديب (تشسترتون) الذي وقف في طابور البنك حتى وصل إلى الصراف... عندها أدرك أنه نسى اسمه! والتفت إلى الواقفين يسألهم: هل يعرف أحد اسمي من فضلكم[3]؟

ابتسم الموظف ابتسامة باهتة.. إن هذه النكات الإنجليزية لا تناسب موظفي

الاستقبال كما هو واضح..
على كل حال لقد عرفت ما أريد..
وتهيأت للانصراف حين تذكرت.. تذكرت أنني نسيت الرقم من جديد! تبًّا لعقلي الفارغ المتخاذل! لقد أنستني حكاية (تشسترتون) الرقم بعد دقيقة من سماعه.. لهذا التفت إلى الموظف من جديد:
- «سامحني على وهن ذاكرتي.. قلت لي ما هو الرقم؟»
نظرة حيرة تبدت في عينيه.. أتراني أسخر منه؟ في النهاية قال نافد الصبر:
- «ستة وخمسون! إنّه مكتوب على المفتاح على كل حال!»
- «شكرًا..»

وصعدت في الدرج.. لا بد أن الغرفة السادسة والخمسين في الطابق الثاني.. ووجدت أرقام الخمسينات على الأبواب أمامي.. فسرت معها حتى وصلت إلى الغرفة المطلوبة..

ليس (رفعت) هنا حتمًا ما دام مفتاحه مع موظف الاستقبال.. فدخل دون وجل.. كليك**!** انفتح الباب عن وكر الأفعى..

ودون تردد خطوت إلى الداخل..

❋ ❋ ❋

لم تكن الغرفة آية في النظام والنظافة..

هذا طبيعي.. أليس هو (أنا) آخر؟ ثم إن عاملة الفندق لا تنظف الغرفة إلا مرة

واحدة في الصباح..
رحت أتأمل أشياءه في فضول نهم...
أكوام من الجريدة التي أقرؤها دون سواها.. ثيابي التي سرقها مني في كل موضع..
لا أعتقد أنه سيحتفظ بمالي هنا..
وجوار الفراش وجدت علبة مميزة.. علبة أقراص (النتروجلسرين) إياها.. فهو مثلي يشكو من ضيق الشرايين التاجية في سن مبكرة نسبيًا..
كان المقلب الأول في ذهني تمامًا، وقد استعددت له منذ وقت مبكر..
مددت يدي إلى جيبي وأخرجت علبة أقراص (الإفدرين).. ثم إنني أفرغت

محتويات علبة (النتروجلسرين) في جيبي.. وملأت العلبة بـ (الإفدرين)..

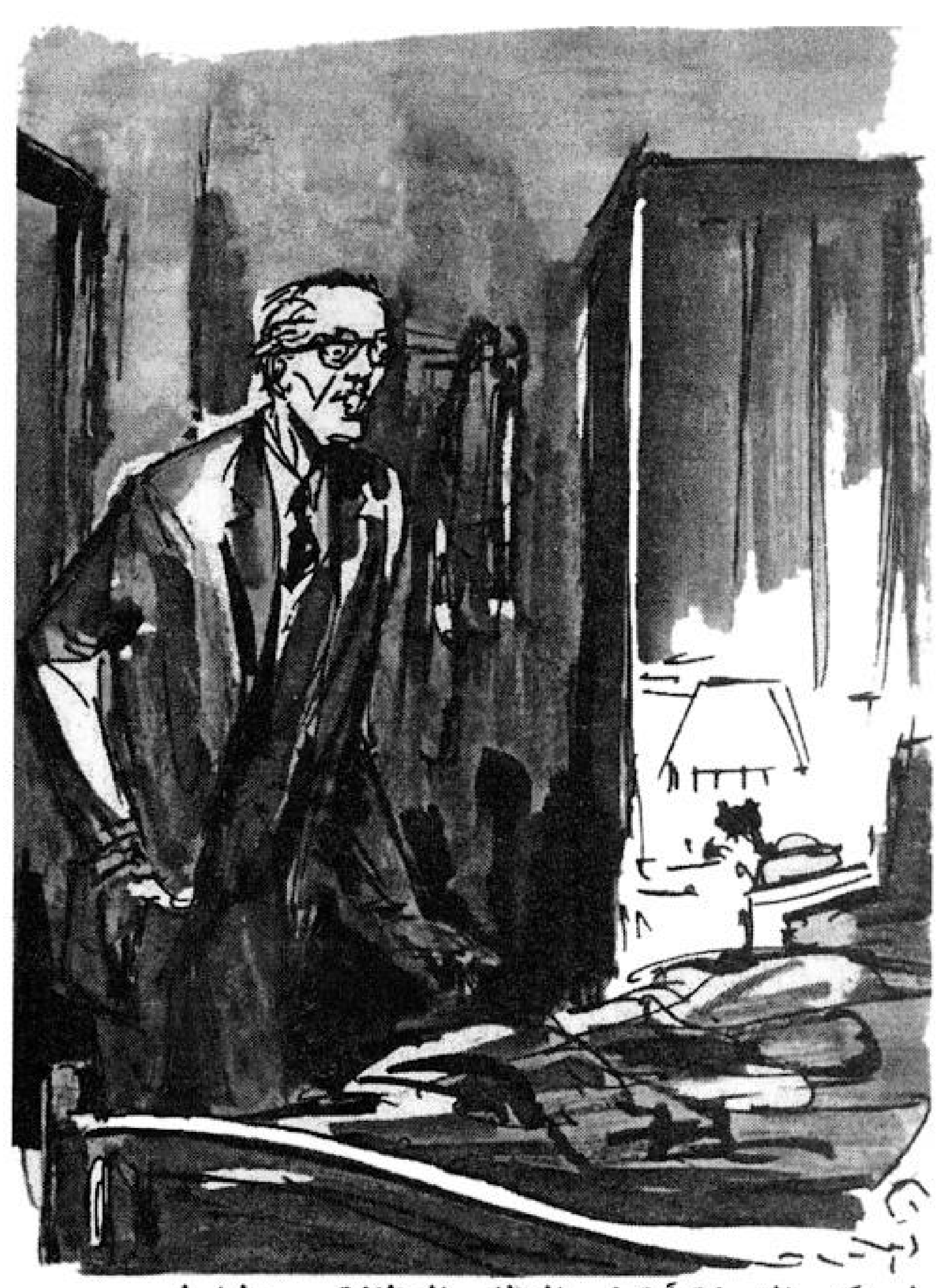
إنها مفاجأة غير سارة لمرضى القلب عمومًا.. سيشعر بألم في صدره، ويحاول أن يخفف منه بقرص (نتروجلسرين).. عندئذٍ يؤدي (الإفدرين) عمله ويزداد العبء على القلب أكثر فأكثر.. ربما يؤدي إلى الوفاة أيضًا..

الوفاة؟

عندها توقفت.. تصلبت أطرافي:. ثم ـ لا شعوريًا ـ مددت يدي لأفرغ العلبة من (الإفدرين).. إن القتل أصعب مما توقعت.. خاصة حين يكون قتلًا خسيسًا مخادعًا كهذا.. على كل حال إن علبة (نتروجلسرين) فارغة لأفضل وأقل ضررًا من علبة ملأى بسم زعاف..

قررت أن أمرح قليلًا على طريقته..

وهكذا قمت بإتلاف بعض الأشياء في الحجرة.. وخدشت الجدران بقلمي.. ومزقت حشية الفراش..، أتمنى أن أرى وجهه حين تطالبه إدارة الفندق بثمن هذه الإصلاحات.. إن فندق (المهراجا) هذا لا



لم تكن الغرفة آية فى النظام والنظافة .. هذا طبيعى ..
أليس هو (أنا) آخر ؟

يقبل الشيكات طبعًا.. وبالطبع يحتفظ ببعض البلطجية لإقناع الرافضين من أي نوع..

* * *

تأهبت للانصراف حين سمعت صخبًا خارج الغرفة..

أرهفت السمع.. فتبينت صوتى الوقور يتكلم بالخارج.. والصوت الآخر كان موظف الاستقبال.. لقد وقعت في الشرك**!**

كان موظف الاستقبال يكرر في حماس:

- «أقسم إنك أخذت المفتاح وصعدت لحجرتك منذ دقائق..»

وكان (رفعت) يقول في إصرار:

- «وهأنذا أمامك! فهل وثبت من النافذة وعدت لأدخل من الباب؟»

- «أستغفر الله العظيم!»

- «لن نظل هنا طيلة اليوم.. هل معك مفتاح آخر؟»

- «بالطبع.. لكنّ..» - ثم في استسلام - «أستغفر الله العظيم!»

لم يكن هناك مفر من الاختباء..

وراء الستائر؟ لا.. إنّه مكان أبله لا يناسب سوى أبطال مسرحيات (شكسبير).. تحت الفراش؟ سيكون في هذا (بهدلة) لا بأس بها.. لكنه الحل الوحيد...

وهكذا شرعت أزحف تحت الفراش، ومددت جسدي.. يا له من جسد ملىء بالعظام لم يخلق للنوم على الأرض!

وهنا سمعت صوت المفتاح يدور في الباب..
- «يا الله! ماذا أصاب الغرفة يا سيـ...؟»
- «لا عليك.. خذ هذا.. سنتفاهم فيما بعد..»
- «لكنّ.....»
وعرفت - من مكاني - أن جنيهًا قد استقر في جيب الموظف ليخرس.. ثم سمعت صوت الباب ينغلق...
لقد صار (رفعت) وحده هنا الآن..
سمعته يصدر عبارات ذهول أو ضيق.. ثم غمغم:
- «فعلها اللعين!»
كان يتأمل الخراب الذي قمت به.. ثم سمعت خطواته تدنو أكثر فأكثر.. حبست

أنفاسي.. شعرت به يجلس على الفراش فوقي.. الملة تئن..
ثم سمعته يقول بصوت هادئ:
- «هلمّ يا د. (رفعت).. اخرج! أنت لن تظل هاهنا ليوم الدين!»
واصلت الصمت.. فشعرت بيده تتحسس الملاءة.. وارتفع طرفها.. وعاد يكرر إلحافه بذات الصوت الهادئ:
- «هلمّ.. أنا أعرف أنك هنا... لا تجبرني على الإنحناء..»
هنا لم أعد واجدًا نفعًا من البقاء في هذا القبر؛ فأخرجت جسدي بكثير من العناء.. وجلست القرفصاء على الأرض أنفض الغبار عن ثيابي.. بينما جلس هو فوق

الفراش يتأملني كأنما أنا شيء معتاد في عالمه..

سألته وأنا أنهض:

- «كيف عرفت؟»

بلا مبالاة قال:

- «أنا أعرف أنك صعدت ولم تهبط.. إذن أنت في الغرفة.. ولا يوجد مكان للاختباء بالغرفة سوى تحت الفراش.. إن الاختباء وراء الستائر لا يناسب سوي أبطال مسرحيات (شكسبير)!»

حقًّا هو يفكر مثلي بدقة تامة..

عاد يسألني دون أن ينظر إلي:

- «هل جئت لتقتلني؟»

- «ربما خطر لي هذا..»

- «... وجبنت.. أليس كذلك؟ أمّا أنا فلن أجبن عن هذا.. لكنّ لا تخف.. لن أقتلك هاهنا لأن التخلص من جثتك مشكلة.. وعلى كل حال.. ما زلت أعتقد أنك سترجح جانب العقل.. ما زال يوم (الجمعة) ينتظرنا..»

ثم تأمل فوضى الحجرة حوله.. وقال دون أن يبدو لوم في كلامه:

- «أنت تضرب تحت الحزام..»

- «مثلك! والبادئ أظلم..»

ضحك من قلبه حتى غرق في نوبة سعال.. ثم سألني:

- «كح كح! هل ستكون هناك يوم (الجمعة)؟»

- «لا تعتمد على هذا..»

ونهضت وسويت ثيابي.. واتجهت إلى الباب..
قال لي مذكرًا:
- «موظف الاستقبال سيطلب المفتاح منك..»
- «سأعطيه إياه.. إنّه معي.. هل نسيت؟»
- «وكيف أخرج أنا؟»
- «تلك مشكلتك!»
وغادرت الحجرة دون تردد.. ولم أنظر للوراء..
ونظر لي موظف الاستقبال نظرة لن أنساها أبدًا.. فأنا إنسان مجنون تمامًا لا يكف عن الدخول والخروج، واستبدال بذلته.. دونما تفسير واضح..

تجاهلت نظرته، وغادرت الفندق..

❋ ❋ ❋

إن يوم (الجمعة) قادم بسرعة جنونية..
إنّه منتصف ليلة (الخميس)!

❋ ❋ ❋

١٢ - لحظة الحقيقة..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. وهذا من حسن حظه..

* * *

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه..

كانت الإضاءة خافتة بسبب المصباح المكسور إياه.. لكن الضوء الخارج من شقتي كان كافيًا لأعرف من القادم..

كان هو.. وقد بدا جادًا صارمًا.....

قلت له في ثبات:

- «من قال إنني سأدعك تدخل شقتي؟»

- «أنا أعرف أنك ستفعل.. فأنت تريد معرفة سر قدومي..»
كان صادقًا.. لكني سألته:
- «جئت لقتلي طبعًا؟»
- «أنت أذكى من هذا.. أنا لا أريد جثثًا تشبهني تسبب تساؤلات عديدة..»
ثم تساءل حالمًا:
- «متى يخترعون وسيلة للقتل تزيل جثة القتيل من الوجود؟ إننا بحاجة إلى مدفع (ليزر) يحول المقتول إلى بخار..»
- «إن الرفاهية التي يقدمها العلم لن تقف عند حد..»
ثم سمحت له بالدخول..
ما أقبحني! لو كان هذا الشيء حقًّا نسخة مني، فإنني لا أجد سببًا يجعل حسناء كـ

(ماجي) تتعلق بي.. أو فتاة عادية كـ (هويدا) تقبل بي عريسًا.. لا بد أنني ظريف أو رائع إلى حد مذهل.. بحيث تغطي جاذبية روحي على هذا القبح المريع..

قال لي وهو يسترخي على الأريكة:

- «الحق أنني بدأت أرتاح لك يا (رفعت).. يؤسفني أن لقاءنا يوشك على الانتهاء..»

- «أنت صادق في هذا.. أحدنا ذاهب إلى الجحيم.. ولن يكون أنا!»

تنهد.. وقال وهو يفك رباطي حذائه:

- «إن الخلاص من نفسك لأمر عسير..»

ابتلعت ريقي.. وقلت له وأنا أتحاشى نظراته:

- «دعنا نغادر الشقة.. سأدعوك إلى كوب من العصير في مكان جيد..»

ابتسم. وتربع على الأريكة قائلًا.

- «ولسوف تدس لي مسحوق (الديجتالا) في العصير.. ثم تلقي بجثتي في الصحراء.. أليس كذلك؟! حذار! فأنا أفكر بنفس طريقتك.. ولا يسهل خداعي..»

أسقط في يدي.. فسألته:

- «إذن لماذا أنت هنا الآن؟»

- «أردت أن أعاود إقناعك.. فما أدعوك إليه ليس بهذه البشاعة..»

- «هذا عالمي.. وهذه حياتي.. ولا أنوي التخلي عن أي شيء منهما..»

قال وهو يمد يده في سترته:

- «أنا أعرض عليك حلًا جذريًا..»

وفي بلاهة رحت أرمق المسدس المصوب إلى رأسي.. مسدسي أو نسخته إذا أردنا الدقة.. وتصلب جسدي كله:

- «لا تكن سخيفًا.. أنت لن تطلق عليّ الرصاص!»

- «لم لا؟»

- «قلت إنك لا تريد جثًّا تشبهك..»

- «هذا حق.. لكنّ أحدًا لن يجد جثًّا..»

- «سيسمع الجيران الطلقة..»

- «عندما أفتح الباب لهم، وأقول إنني بخير وأن المسدس انطلق بينما كنت أنظفه؛ عندها سيعودون إلى بيوتهم مغمغمين: يا للمجنون! ثم ينسون كل شيء.. بعدها أحمل جثتك إلى السطح ليتم التبادل..»

كان مخي يعمل كسيارة سباق..

هذا كلام منطقي.. ومن الغريب أنني لم أفكر فيه عندما سمحت له بالدخول..

عدت أسأله:

- «ولماذا لا تفعل ذلك الآن؟»

- «لأني آمل في أن تفعلها حيًّا.. لست شغوفًا بقتل من يشبهني إلى هذا الحد.. لكني بالتأكيد سأضغط الزناد إذا استمررت في عنادك..»

نظرت إلى ساعتي..

إنها الرابعة صباحًا.. ما زالت ثلاث ساعات تفضلنا عن الموعد المنتظر..

وعلى أن أخدع هذا الوغد قبل فوات الأوان...

ومرت الدقائق بطيئة مملة..

يبدو أنني جلست على الأريكة بعض الوقت فغبت عن الوعي.. ثم عدت لصوابي.. وتأملته.. كان جالسًا يقاوم النعاس بدوره.. والمسدس في يده..

أغمضت عيني من جديد.. وفتحتها فوجدته قد أغمض عينيه تمامًا..

هل أثب عليه لأنتزع المسدس؟

إنها مخاطرة.. ماذا لو كان حافز الخطر عنده قويًا.. وفتح عينيه وأنا على بعد مترين منه؟ سيضغط الزناد بدون تفكير.. و.....

وعاد النعاس يهزمني من جديد...

لكني كنت أعرف أن حرب النعاس سجال بيننا.. وأنه يصحو حين أنام أنا.. والعكس صحيح..

وبدأ الضوء النظيف المنتعش يتسلل إلى الشقة..

صياح الديكة من مكان ما.. وصوت الطيور تتشاجر على لقمة العيش..

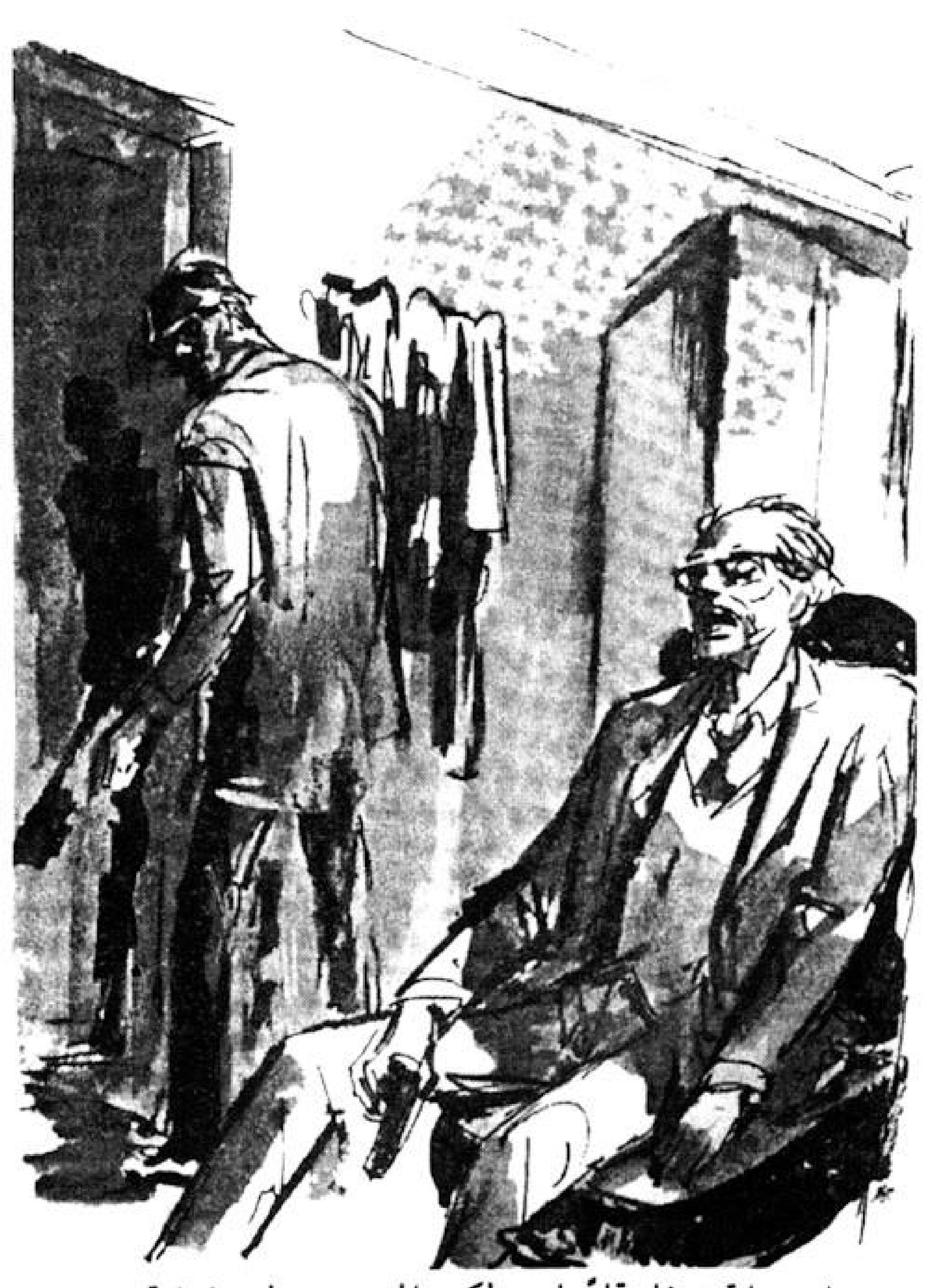
ونظرت إلى الساعة.. إنها السادسة صباحًا..

وصاحبنا قد نام تمامًا.. لكنّ المسدس لم يفارق يده..

أدركت أن عليّ أن أتحرك سريعًا.. فتوتره لن يجعله ينام أكثر..

*   *   *

وثبت وثبة واحدة إلى باب الشقة.. ففتحته..
وخرجت منه.. ثم أغلقته خلفي..
وهرعت أصعد في الدرجات إلى سطح البناية، درجتين فدرجتين..
لحسن الحظ لا أحد يصحو مبكرًا يوم (الجمعة)..
فليس هناك من يسألني أسئلة مريبة.. ليس هناك سواي..
فتحت الباب الخشبي ذا الصرير.. وخرجت إلى الفضاء الفسيح..
هو ذا هوائي التلفزيون الخاص بي..
الشمس محتجبة.. لكني أعرف الشرق والغرب.. ويمكنني تخمين أنّ هذا هو



وصاحبنا قد نام تمامًا .. لكن المسدس لم يفارق يده ..

الموضع الذي سيلمسه ظل الهوائي بعد دقائق..
ألقيت قطعة قرميد في المكان المذكور...
ثم هرعت إلى الهوائي.. فجاهدت حتى انتزعته من مكانه.. كان مثبتًا إلى السور ببعض الحبال لم أجد مشقة في قطعها..
ثم حملته إلى موضع بعيد.. وأحكمت ربطه هناك..
لم يأت شبيهي بعد..
يحتاج إلى بضع ثوان كي يفيق.. ويهرع إلى الباب.. ثم يبحث عني في الطوابق السفلى لأنّه يتوقع أنني هربت إلى الشارع..
بعد هذا سيفطن إلى أنني لم أبرح البناية بعد.. وسيبدأ في البحث عني من أسفل

لأعلى.. حتى يصل إلى السطح..
ونظرت لساعتي.. ربع ساعة.. عشر دقائق على الموعد...
أشرقت الشمس.. ورأيت ظل الهوائي - في موضعه الجديد - يرتسم على أرض السطح.. إنها السابعة إلا دقيقتين..
هنا انفتح الباب..
ورأيت (رفعت) يدخل شاهرًا مسدّسه..
كان شرسًا.. نظرة الغضب الوحشية في عينيه.. وإحساسه بأنه قد خدع بشكل ما.. ولو لم يكن يخشى تأثير الموت على انتقال الجزيئات؛ لأفرغ رصاصة في جسدي فورًا.. لكنه كان يخشى أن يفسد شيئًا ما بقتلي..
قال لي بصوت لم يفارقه النعاس تمامًا:

- «كانت محاولة حمقاء.. والآن تحرك.. فقد حان الموعد!»
قلت وأنا أتراجع للوراء:
- «لن أفعل!»
- «اسمع.. لم يعد الوقت يسمح بالمزاح.. هيا!»
قالها وازداد عصبية.. للمرة الأولى لا يبدو واثقًا من نفسه إلى هذا الحد.. وتقدم نحوي.. ببطء.. ببطء..
بدأت أتراجع بدوري إلى البقعة المحددة.. حيث سقط ظل الهوائي..
خطواته تقوده نحو قطعة القرميد..
إنها السابعة تمامًا..
توقف لحظة.. نظر حوله.. فتراجعت إلى الوراء أكثر.. صار الظل فوق صدري..

انتظر هنيهة.. ثم نظر للسماء.. وغمغم في شك:

- «غريب! لم يحدث شيء..»

- «لعلها فوارق التوقيت بين الكوكبين..»

- «كلا.. إن الموعد في السابعة بتوقيتكم هنا..»

وعاد ينظر حوله.. ثم غمغم في شك أكبر، وهو يركل قطعة القرميد:

- «لحظة! هل قمت بتحريك الهوائي من موضعه؟!»

والتمع الفهم في عينيه:

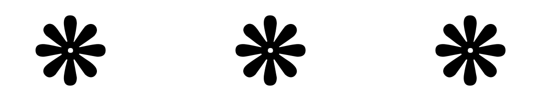
- «أنت حركت الهوائي من موضعه!»

وهنا شعرت أن الهواء مشحون كأنما عاصفة رعدية تدنو.. وفي اللحظة التالية رأيت جسده يتحول إلى لون أزرق باهت..

ثم بدأت ظلال سوداء تزحف لتغزو اللون الأزرق.. وازداد اللون شحوبًا..
لقد صار جسده شفافًا تمامًا.. ثم.. لم يعد هناك شيء..
اختفى (رفعت إسماعيل) من أمام عيني..
اختفى من الوجود في ثانية واحدة..
لقد كان الاسترداد ناجحًا ودقيقًا.. وعاد الرجل إلى عالمه مرغمًا..
ولحسن الحظ لم يفهم الجزء الأخير بعد فوات الأوان..

❋ ❋ ❋

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.....
شكرا لله...!



الخـــاتمـــة

هذا هو كل ما أستطيع قوله عن هذه القصة..

أشبه شيء هي بهلوسة في عقل أضناه المخدر أو الإدمان.. لكنّها حقيقة واقعة..

ولقد احتجت إلى جهود كونيّة، كي أصلح كل الخراب الذي تركه الوغد في عالمي قبل أن يرحل..

تحججت لدى البعض بإرهاق أعصابي.. أو بحيرتي.. أو بمرضى النفسي.. أو بخرقي وغبائي.. المهم أنني خسرت كثيرين لم يقبلوا مبرراتي..

ولطالما دعوت الله ألا يعود ذلك المأفون إلى عالمي.. وإن كنت أستبعد عودته، فاجتياز العوالم الموازية ليس حقًّا من حقوق الإنسان يمارسه متى شاء.. ثم إنني أعتقد أن لدى الرجل مشاكل جمة في عالمه.. مشاكل أعقد مما حكاه لي.. ربما هو متورط في جريمة ما أو مأزق ما.. هذا هو المبرر الوحيد لحماسة الشديد كي يجعلني أعود بدلًا منه...

على كل حال لم يجل بخاطري قط أنني قد أكون مرعبًا إلى هذا الحد..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. ومن الأفضل النواميس الطبيعة ألا يحدث هذا أبدًا..

* * *

والآن - بعد هذه المغامرة القصيرة - يمكننا العودة إلى روتين الحياة المعهود..

وسأبدأ بتقديم قصة أخرى عن اثنين من عالم مواز آخر..

(سالم وسلمى).. هل نسيتموهما؟

إن لديَّ قصة جيدة قاما بها هي (أرض المغول).. وهي تتحدّث عن عالم لم يظهر فيه (قطز).. ما هي النتيجة؟ النتيجة هي عالم يحكمة المغول بأكمله بقبضة لا تلين.. ووحشية غير مسبوقة..

ولكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة

العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



هناك مسوخ ومسوخ .. مسوخ تزأر فى الغابات المظلمة .. ومسوخ تنتظر فى أعماق المحيط .. ومسوخ تفتح أبواب المقابر ليلاً .. ومسوخ تفتح عيونها في ظلام معمل ما .. لكن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه .. هو نفسه!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم



العدد القادم:

أسطورة أرض المغول

Notes

[←1]

أعتقد أن اسمها سيكون (أسطورة الآخر) ما لم أشعر وقتها بأن الاسم سخيف ومتحذلق!

[←2]
فيما بعد عرفت قصة (سالم وسلمى) بتفصيل أكثر..
وصار الأمر مألوفًا لي..

[←3]

حقيقة..